أثر التغيرات الفيزيولوجية على نفسية المراهق

تترك التغيرات الجسمية النمائية لمرحلة المراهقة آثاراً على نفسية المراهق؛ فالنمو السريع في طول المراهق ووزنه قد أحدثت تغيرات جسمية عضوية حركية غير مألوفة، فينشأ عن ذلك فقدان التوازن والاتزان، ويتعثر المراهق في أعماله أحياناً، ويخفق في إتقان هذه الأعمال أحياناً أخرى، ويبدو ذلك واضحاً في حركات يديه وأصابعه وغيرهما. وكذلك يصحب هذه التغيرات الكسل والخمول والتراخي، كما يبدو المراهق قلقاً مضطرباً. ولعل هذا الواقع هو الذي حمل علماء النفس على تسمية هذه الفترة بفترة الارتباك والقلق.

ويترتب على النمو اضطرابات نفسية وانفعالات متقلبة قد تؤدي عند بعضهم إلى الخجل والانطواء وإلى اضطرابات سلوكية يظنها البعض مرضاً أو شذوذاً، وتؤدي عند البعض الآخر إلى تفكير اجتراري وخيالي أي البعد عن الواقع وظهور أحلام اليقظة. وقد يتطور كل ذلك إلى تركيز المراهق اهتمامه حول جسمه، ويدفعه إلى الاهتمام بمظهره الخارجي ليظهر أمام الآخرين بالمظهر الأنيق (smart) ويؤدي ذلك إلى صراعه مع القيم السائدة في المجتمع، ويتطلب هذا التوجيه النفسي والتربوي من الكبار بقصد تحسين عملية التكيف والتوافق، والتنبؤ بتطور المشكلة في المستقبل.

الانجذاب نحو الجنس الآخر

هو أحد مظاهر البلوغ الذي يلاحظ على تصرفات المراهقين؛ ففي بداية البلوغ لا يلاحظ الانجذاب بين الفتى وبين الفتاة بل يحصل انزعاج متبادل بينهما، ثم يظهر الانجذاب بشكل مقنّع بالإمكان كشفه في الأحلام والقراءات، كون الشحنات الغريزية لا يمكن إشباعها لأنها تصطدم بالضغوط الاجتماعية والموانع الأخلاقية.

وهناك مرحلتان في نضج الشحنات الجنسية: مرحلة الجنسية غير الناضجة التي تؤدي إلى الاستمناء (masturbation)؛ ومرحلة الجنسية الغيرية حيث يتطور البحث عن القرين من الجنس الآخر. ويعتبر فرويد أن تفسير الجنسية الذكورية أسهل من تفسير الجنسية الأنثوية.

وتبيِّن بعض الدراسات أن هناك اختلافات من بيئة إلى أخرى في الحضارة نفسها؛ فقد أظهرت هذه الدراسات أن الاهتمامات بأمور الجنس تكون مبكرة عند العمال والمستخدمين أكثر منها عند الطلاب، وأن المجلات ووسائل الإعلام تساعد على هذه الاستثارات المبكرة. والوصول إلى البلوغ الجنسي يترجم نظرياً بالقذف المنوي الذي يفاجيء الفتى بهذه اللذة القوية والجديدة التي يشعر بها. إن أفراد الجيل الجديد هم أكثر معرفة بهذه الظاهرة من الجيل القديم. لذلك، لا يشعرون بالضيق وإن كان بعضهم لايزال ينتابه الشعور بالخجل والذنب في حال القذف التلقائي.

وبالرغم من أنه يتم حالياً إعلام المراهقين بما سيحدث لهم أثناء مرحلة النضج الجنسي، إلاّ أنه يبدو أن المراهقين الذكور هم في أغلب الأحيان، أقل معرفة من الإناث؛ فالذكور في رسم صور تعبِّر عن شخصياتهم، لا ينوهون مطلقاً بظهور الخصائص الجنسية، بل يؤكدون على قوتهم الجسدية وخشونة أصواتهم، والأهمية التي يعطونها إلى مظهر الوجه والشعر.

أما بالنسبة للفتاة فإن الوصول إلى البلوغ الجنسي يؤدي إلى تغيرات معترف بها من قبلها ومن قبل المحيط: نمو الثديين وظهور الحيض وانعكاساتهما النفسية؛ فعندما يكون نمو الثديين مبكراً أو سريعاً تشعر الفتاة بالانزعاج، فترتبك في سلوكها، وتحاول أن تمشي منحنية لتخفي هذا المظهر الجديد. أما إذا تأخر نمو الثديين فإنها تشعر بالقلق والإحباط. وظهور حبَ الشباب يشكل أيضاً مصدر قلق للجميع.

والفتاة القابلة لأنوثتها بشكل خال من الصراعات، والتي هي في حالة متوافقة مع انتمائها الأنثوي، تنتظر ظهور الحيض لديها باعتزاز كدليل على المرور إلى النضج والأنوثة الفعلية، ولا تخجل به من خلال إعجابها بجسدها. أما الفتاة التي تعاني من صراع بخصوص أنوثتها، فإنها تقابل هذا الحدث بصعوبة واضطراب سواءٌ حصلت على معلومات قبل ذلك أو لم تحصل.

وهناك فتيات يُفاجأن بالحدث فيحاولن إخفاءه بسبب رفضهن له ونتيجة للكبت؛ واليوم، فإن غالبية الإناث على علم بما سيحدث لهن، غير أن الحيض بالرغم من ذلك يشكل للبعض صدمة قوية لأسباب عديدة منها:

- إن الفتاة التي تنتظر هذه اللحظة أملاً في الانتقال من الطفولة إلى النضج تصاب بخيبة لأنها لا ترى أي تغير طرأ على مكانتها. والخطر هنا أن تعبِّر عن خيبتها هذه باستجابات خورية (Dépressives)

- والفتاة التي تحيض في مرحلة مبكرة ترفض هذا الحدث لأنه يعيقها عن نشاطها وخصوصاً أنها تعتقد بأنهم سيمنعونها أن تلعب.

- وهناك فتيات يعشن أمر الحيض على شكل تلوث، ويهيمن عليهن شعور بأن رائحة كريهة ستنبعث منهن وأن الجميع سيعرف أنهن في مرحلة الحيض. ـ وفتيات يصبن بالذعر ويعشن الحيض بشكل أذى وألم بالجسد، ويرتبط ذلك بهوامات ـ (Fantasmes) عن عدوان داخلي على الجسم، وأفكار عن السادية الجنسية التي تقع أعضاء المرأة ضحية لها.

- وفي بعض العُصابيات (Psychotiques) يحرك الحيض عقدة الخصاء (Castration) لديهن كالجسم الذي يُدمى لأنه بتر شيء منه، وقد ينفجر العُصاب ويتخذ طابع الخواف (Phobie) والهلع.

ويرتبط الحيض بحياة الأنثى بمسألة الأمومة لأنها لأول مرة تشعر بارتباطها بوظيفة الجنس والإنجاب، كما يرتبط الحيض لدى الفتيات بالرغبات والمخاوف المتعلقة بالحمل والوضع.

وللحيض ارتباط بحياة الأنثى العاطفية وبانفعالاتها: كل اضطراب نفسي يمر في العادة من خلال التأثير على الدورة الشهرية: انقطاع دم الحيض وانتظامه وظهوره بشكل مبكر أو متأخر وبكمية قليلة أو كثيرة.

ثانياً: النمو العقلي المعرفي

يرى الكثير من علماء النفس أن التطور في النمو الجسمي عند المراهقين يصحبه نمو هائل نوعي بنفس القدر، وإن كان أقل وضوحاً في القدرات العقلية والمعرفية؛ ولذلك يعتبرون المراهقة فترة نمو عقلي معرفي. وفقاً لنظرية «بياجيه» (Piaget) فالنمو العقلي المعرفي يتميَّز بخطين من النشاط العقلي هما: العمليات الحسية في الطفولة المتأخرة، والعمليات المجردة الشكلية في المراهقة والتي تتسم بدرجة كبيرة من المرونة والضبط في العمليات العقلية.

وقد أكدت دراسة «بدوين كيتس» على تزايد المرونة والضبط في العمليات العقلية في سن 12، 14 سنة؛ كما تشير الدراسات إلى أن خصائص النمو العقلي في هذه المرحلة تتحرر من أسر الخبرات المحسوسة، وتتميز بقدرة المراهق على التفكير التجريدي واستخدام التعميمات والرموز المجردة بما يوفر لتفكيرهم الاستيعاب للموضوعات المختلفة وإمكانية التحكم فيها.

المعرفة المنطقية: إن طبيعة العمليات المجردة الشكلية (Formelles) بحسب نظرية «بياجيه» تصبح نمطاً متسقاً من السلوك العقلي تنشأ من خلال تفاعل المراهق والآخرين، ومن خلال ازدياد علاقاته الاجتماعية وتطلعاته وآماله، فيؤدي ذلك إلى نمو التفكير المنطقي لديه؛ وتؤيد دراسة «نالدسون» ذلك حيث تشير إلى أن الفترة 12، 14 سنة فترة يتزايد فيها بشكل ملحوظ نمو القدرات العقلية المعرفية لدى المراهقين، وأنهم على استعداد وتهيؤ ذهني للتفكير والعمل ضمن إطار الشروط المعطاة لهم.

أورد «بياجيه» و«إنيهلدر» في كتابهما **«من منطق الطفل إلى منطق المراهق»**[1] أن المراهق يستطيع في سن 14، 15 سنة أن يستخدم نظاماً مركباً، أي أنه بإمكانه أن يستخدم عاملاً واحداً في الوقت الذي يجعل ما عداه ثابتاً، كي يحدد أثر هذا العامل الواحد. وفي هذا جوهر الفرق بين تفكير الطفل وبين تفكير المراهق؛ فالطفل يفكر في ما هو موجود فقط، في حين أن المراهق يفكر في ما هو موجود بالإضافة إلى ما يحتمل

(1) J.Piaget et B. Inhelder: De la logique de l'enfant à la logique de l'adolescent, P.U.F. Paris, 1958.

أن يوجد، وباستطاعة المراهق أن يتبنى برنامجاً منظماً ويكتشف كل الزمر والعلاقات المحتملة، ويتوصل إلى نتائج عامة متسلسلة بطريقة منطقية.

وفي هذه المرحلة يتحرر المراهق من التمركز حول الذات أو الأنوية (Egocentrisme) في إدراكه؛ إذ يصبح أكثر قدرةً على التفكير الموضوعي، وإدراك المنطق العلائقي، ووجهة نظر الآخرين. ويشير «بياجيه» إلى أن من خصائص هذه المرحلة كما قلنا اختفاء التمركز حول الذات نتيجة للتغيرات في طبيعة العلاقات بين المراهق وبين أسرته وبين مدرسته وبين المجتمع ككل، ونتيجة لنمو شخصيته إذ يبدأ بالتفكير الاستدلالي أو الاستنتاجي الواقعي؛ ويبيِّن «ميللر» أن شخصية المراهق تسير من الحياة العقلية البسيطة إلى الحياة العقلية المعقدة، وتحول النزعة من التفكير المحسوس إلى الاهتمام بالموضوعات النظرية المجردة، ويستطيع أن يميِّز بين رغباته وميوله وبين رغبات وميول الآخرين.

وتنمو لدى المراهق القدرة على التخيل والتصور الذي يتجه من المحسوس إلى المجرد ويتضح ذلك من خلال ميوله واهتماماته وهواياته، كما تنمو لديه القدرة على التعميم وفهم التعميمات والمفاهيم المجردة مثل الخير والعدالة. وفي عمر 15، 16 سنة يختبر المراهق الواقع بفرضية أو بسلسلة من الفرضيات ويبدأ التمييز بين توقعاته وتوقعات الآخرين كنتيجة لهذه الاختبارات[1].

ويتحرر المراهق من حدود التفكير الحسي إلى عالم التصورات الذهنية والمبادىء والنظريات؛ وبقولٍ آخر تعتبر هذه المرحلة تمهيداً وتهيؤاً واستعداداً لدخول المراهق مرحلة جديدة من حياته، فيسعى إلى المشاركة البناءة وإلى محاولة تنظيم وترتيب أفكاره ترتيباً منطقياً يعتمد على الاستقصاء والاستنتاج والتفكير الواقعي الموجَّه نحو هدفٍ لفهم ما يجري حوله من قضايا وأمور ويسعى إلى النجاح المهني والاجتماعي.

1 ـ تطور الذكاء بحسب دراسات «بياجيه» وتلاميذه:

يعتبر «بياجيه» «أن انبناء العمليات المجردة التي تبدأ في سن 11، 12 سنة تتطلب أيضاً انبناءات هدفها نقل التجمعات «الحسية» إلى مستوى جديد من التفكير وهذا الانبناء يتصف بسلسلة من الفروقات العمودية»[2].

---

(1) J.Janeway Conger: Contempary ISSUES in adolescent development, 1975.

(2) J. Piaget: La psychologie de l'intelligence, A. Colin, Paris, 1947.

والذكاء المجرد أو العمليات العقلية الإجرائية (العمليات العقلية العليا) تنمو خلال فترة المراهقة، والمراهق عكس الطفل قادر على التفكير خارج الحاضر، وقادر على الخروج بنظريات تتناول الأشياء والأحداث، وما يهواه هو التفكير خارج نطاق الحاضر والمحسوس؛ وهذا الذهن المفكر يميِّز فترة المراهقة ويبدأ في سن 11، 12 سنة، عندما يستطيع الفرد التفكير في الطريقة الفرضية ـ **الاستنتاجية** (Hypothetico - Déductive) دون علاقة بالواقع المعيوش.

«ذلك أن التفكير الشكلي (Formelle - Formal) على جمل منطقية يتطلب عمليات عقلية غير مطلوبة في حال التفكير على الواقع الحسي ويتطلب اجتياف (استدخال في الذات) وتجمع العمليات التي تصبح مركبة وعكسية»[1]. والذهن المجرد يعمل على نتيجة الأفعال الحقيقة: المسألة تكون دائماً القدرة على التصنيف والترتيب والعد والقياس والانتقال في الزمان والمكان، ولكن الذهن لا يعمل على وضع الأفعال في بنيات ولكنه يستخدم الجمل اللغوية التي يعبِّر عنها في بنيات.

ونفهم هنا لماذا الفروقات العمودية بين العمليات الحسية وبين العمليات المجردة بالرغم من أن الثانية تعيد محتوى الأولى ولا يوجد في العمليات المجردة الصعوبات النفسية ذاتها التي في العمليات المحسوسة (العيانية).

فالمنطق الشكلي **والاستنتاج** الرياضي يبقيان فوق مستوى وعي الطفل ويشكلان حقلاً مستقلاً: الفكر المجرد المستقل عن الواقع؛ وهنا لا بدَّ من تعلم لغة خاصة، أي الرموز الرياضية والكلمات التي تعبِّر عن الجمل المنطقية؛ ذلك أن العمليات الفرضية ـ الاستنتاجية موجودة في مرحلة الذكاء المحسوس (Intelligence Concrète)، ولكن المنطق المجرد يميِّز هذه المرحلة النهائية التي تعمل العمليات المحسوسة للوصول إليها عندما تترجم في نظم عامة.

ويعتبر «بياجيه» أن البناء العقلي في مرحلة الطفولة يتميَّز بالتمركز حول الذات (الأنوية: Égocentrisme)، وفي مرحلة الرشد بالموضوعية؛ أما في مرحلة المراهقة فإن البنية العقلية تتميّز بأنها انتقالية ما بين الأنوية وبين الموضوعية؛ وهي لا تتمتع بالثبات بالرغم من وصول الذكاء إلى حده الأعلى في النضج؛ فالخصائص المميزة للبنية العقلية للمراهق هي عدم الاستقرار العاطفي والعلائقي، وهي قائمة على التخيل وأحلام اليقظة،

---

(1) مريم سليم: علم تكوين المعرفة، مرجع سابق.

أكثر مما تقوم على الاستقرار والمنطق والواقعية. هذه الرؤيا عن العالم الخارجي تحد من الموضوعية الممكنة في هذه المرحلة: فالمراهق يتمكن من فهم التفكير لدى الراشد ويشعر أنه موازٍ له، ولكنه كثير الحماس والاندفاع في تفكيره، حيث لديه مزيج من المثالية ومن الخيال ومن التمرد؛ فهو يرى الأشياء من زاويتها الرائعة، ويضع المشاريع الضخمة ويعاند في مناقشاته؛ وهو واقع بين قطبين: قطب سلبي يؤدي إلى إحساس بأنه غير مفهوم، وقطب إيجابي يدفعه إلى تأكيد ذاته.

ويرى «بياجيه»[1] أن المراهق ابتداءً من سن الخامسة عشرة تقريباً، يكتشف أنه قادر على المزج بين الفرضيات، ويحاول اكتشاف العلاقات المتبادلة بين وجهة نظره وبين وجهة نظر الآخرين؛ فهو لم يعد مركز العالم والمرجع الوحيد، بل أصبح يدرك أن كل فرد هو سيد تجاربه. فهذا التبادل الفكري يمكنه من اجتياف (استدخال في الذات) (Ienterjection) في استعمال اللغة لدى المراهق واستعمال كلمات الاستنتاج والمقارنة «إذن» و«مهما» وغيرهما... في معناها الصحيح.

ويتوصل المراهق إلى إمكانية الاختبار العلمي الصحيح والنظر إلى المشكلات والعوائق التي يصادفها في حياته اليومية؛ فهو لم يعد يقبل بالظاهرات كما هي، بل يفتش عما وراءها عن طريق القيام بالتحقيقات واختراع الحلول.

فهذه المرحلة هي مرحلة ميل المراهق إلى التجارب العلمية والتفسير ووضع الفروض ومحاولة التثبت من نتائجها المنطقية؛ ولكن لا يكفي فهم العالم الفيزيائي أو البرهنة على هذه القضية أو تلك؛ إذ إن الأهم والأصعب هو إدراك الواقع المعقد للعالم الذي يحيط بالمراهق: العالم الواقعي والعالم النفسي؛ فالمراهق بدلاً من الاهتمام بتكيفه والواقع، فإنه يظل في مشكلات مجردة، وبدلاً من الاهتمام بالواقع بذاته، فإن عملياته العقلية يظل اهتمامها محصوراً في الممكن.

إن التجارب العديدة التي أجراها «بياجيه» ومعاونوه مكّنته من أن يستخلص بعض النتائج حول خصائص التفكير لدى المراهق[2] من أبرزها:

1 ـ أن المراهق يستطيع أن يفكر انطلاقاً من فرضيات مجردة.

---

(1) مرجع سابق J. Piaget, B. Inhelder: De la logique de l'enfant à la logique de l'adolescent,

(2) J. Piaget: L'épistémologie génétique, P.U.F., Paris, 1970.

2 ـ يتوصل المراهق إلى منطق القضايا التي تسمح بالتفكير الفرضي ـ **الاستدلالي** أي القدرة على مزج قيم حقيقية، أو خطأ القضايا المتخذة كفرضيات واستخلاص نتائجها الممكنة.

3 ـ التمييز بين الشكل وبين المحتوى في العمليات العقلية، واعتبار الأواليات الشكلية في التفكير كأدوات تصلح لجميع الأفكار.

4 ـ القدرة على استخدام عمليات من الدرجة الثانية، أي التوصل إلى عمليات عقلية بالاستناد إلى عمليات عقلية أخرى، أو التوصل إلى فرضيات انطلاقاً من فرضيات أخرى.

5 ـ إمكانية المزج في العمليات الشكلية: تضمين الواقع في الفرضيات أو في الممكن وتضمين الممكن في الواقع.

6 ـ وينتهي «بياجيه» إلى اعتبار أن نشوء التفكير المنطقي لدى المراهق مرهون بنمو الجهاز العصبي، وبتوافر ظروف بيئية ملائمة. لذلك فإن تغيرات التفكير لدى المراهق لا تحدث إلاّ من خلال الاندماج في عالم الراشدين، وبالتالي فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة المراهق العاطفية، والمشاركة الفعلية في الأفكار والمبادىء والمثل العليا للبيئة الاجتماعية.

والمراهق الذي يشعر بقدرته على التفكير يميل إلى المبالغة في أحكامه، ويصبح كل شيء ممكناً وتبدو الأمور سهلة أمامه، كون النظريات التي يبنيها بفرح ولذة ليس من الضروري التحقق منها في الواقع.

2 ـ تطور الذكاء لدى المراهق بحسب «دبس»:

يؤكد «دبس» في كتاب «**المراهقة**»[1] على ثلاث خصائص رئيسية للنمو العقلي لدى المراهق:

1 ـ تخصص الذكاء العام وظهور القدرات العقلية الخاصة.

2 ـ **الجدل** في التفكير.

3 ـ ظهور مفهوم القانون في التفكير.

---

(1) M.Debesse: L'adolescent, que sais-je, No. 102.

1 ـ تخصص الذكاء العام وتزايد القدرات العقلية:

إن كثيراً من عوامل التطور العقلي ومكوّناته تكاد تكون قد اكتملت قبل أن تبدأ مرحلة المراهقة، بحيث إن بعض المهارات الإدراكية والحركية والقابلية على التذكر لا يطرأ عليها إلاّ قليل من التطور بعد الطفولة المتأخرة. إن هذا يعني أن الأساس الذي يرتكز عليه التطور العقلي يكاد يكون قد تمّ في مطلع المراهقة.

اعتبر «سبيرمن» (Sperman) أنه إلى جانب القدرات العقلية الخاصة، هناك طاقة عقلية تتداخل في جميع الوظائف العقلية، وهذه الطاقة العقلية العامة تصل إلى أقصى مداها في عمر يراوح ما بين 15، 16 سنة، وتصل لدى الأفراد الأذكياء إلى حوالى 19 سنة، والذكاء الطفلي يبقى وظيفة فطرية شاملة وكلية، ولكن قبل البلوغ بقليل تظهر الاستعدادات أو القدرات، أي تلك الاستعدادات والقدرات الفطرية التي تمكن من التمييز بين الأفراد، وتجعل بعضهم قادراً، مع مساواة التربية والظروف، على النجاح في ميدان أكثر من ميدان آخر.

وتتخذ هذه الاستعدادات أو القدرات أشكالاً متنوعة: مكانية وزمانية، وذاكرية، ورياضية، وموسيقية، ولفظية، وميكانيكية... إلخ، وهي تظهر بالتدرج بين مرحلة البلوغ وبين العمر الذي يتراوح بين 16، 17 سنة.

وتقاس الاستعدادات أو القدرات من خلال روائز متخصصة، وتعطي النتائج على شكل «جانب نفسي» (Profil Psychique)، ولقد ثار جدل كبير حول استقلال القدرات أو ارتباط بعضها بالبعض الآخر. والفكرة الشائعة بين الدارسين هي أن التفكير العام يتغلب حتى سن الحادية عشرة، ثم ابتداءً من سن الثانية عشرة تظهر العوامل النوعية، مما يؤدي إلى تخصص نشاطات المراهق، وفي هذه المرحلة بالذات تطرح أمام المراهق، لأول مرة، مسألة توجُّهه المهني، وتساؤله حول قدراته الخاصة.

2 ـ الجدل في التفكير:

يصبح المراهق ابتداءً من 14، 15 سنة قادراً على الجدل والمناقشة والنزاع الفكري. ويعتبر «ماندوس»[1] (Mendousse) «أن المراهق يلقي بنفسه إلى أكثر

(1) P.Mendausse: L'âme de l'adolescent, P.U.F. in L'adolescent, par M. Debesse, Coll. que sais-je.

المشكلات تعقيداً ويهتم بالمسائل الفلسفية والميتافيزيقية؛ والحجج والبراهين التي يعطيها تكون في بداية الأمر، حججاً وبراهين مشوشة ثم تنظم تدريجاً، ويتوصل المراهق إلى أسلوب خاص في الجدل والمناقشة وإعطاء الدليل الواضح. . . ويرتبط تقدم التفكير هنا، باكتشاف الأفكار العامة وبروز القدرة على التجريد»؛ ويلاحظ أن الجمل التي يؤلفها المراهق لإسناد فكرته، وإن بدت أكثر غنى في ألفاظها وأكثر قدرة على التعبير عن أفكار واضحة، فإنها تظل في البداية كالثوب الفضفاض؛ إذ إن زيادة المفردات جاءت أسرع من القدرة على تنظيمها في إطار صياغات معقولة. فلذة التلاعب بالكلمات، والبهلوانية اللفظية تعطي خطاب المراهق طابع الثرثرة أو الجدل الفارغ، أكثر من طابع التسلسل المنطقي القائم على الربط بين العلة وبين المعلول.

ولا شك أن المبالغة في التفكير والصياغة، وخصوصاً استعمال القياس في تركيب المقاطع والجمل، يؤدي بالمراهق إلى التصلب في المواقف والتفكير. ويصبح طابع التفكير لديه «دوغماتيكياً» (Dogmatique). فالآراء التي يعبر عنها ويجادل فيها لا يبتغي في ما ورائها البرهنة على المعرفة التي لديه، بل لكي يثبت أن الحق معه، وأنه هو الذي يملك الحقيقة. فهنا تتداخل كل حالات المعاندة الفكرية والرغبة في المعارضة واتخاذ المواقف المضادة لإثبات ذاته والتأكيد على شخصيته.

إن هذه المظاهر لدى المراهق هي مظاهر مؤقتة تزول بعد فترة التدريب العقلي.

3 ـ إكتشاف مفهوم القانون:

إن الربط بين المسببات والأسباب، والعلاقة بين الظاهرات وتعلم بعض قوانينها أمور يتم اكتشافها في أعقاب البلوغ، أما التوصل إلى مفهوم القانون فإنه لا يحدث إلاّ في المرحلة المتقدمة من المراهقة، بعد نضج كل الامكانيات العقلية، وتوصل التفكير إلى إدراك العالم كبناء متماسك، فيصبح القانون التعبير عن الروابط العامة والضرورية التي تربط الظاهرات وتنظمها.

الأسباب التي تعيق النمو العقلي:

إن النمو العقلي يتأثر بالتعلم، وهو متلازم مع درجة الثقافة والصلة بالحضارة، وما تتيح له فرص للاكتساب. ولكن ظروف الحياة قد توجد مواقف من شأنها أن تعيق النمو الطبيعي للذكاء. فإلى جانب أنواع النقص العضوي أو التخلف الوراثي، فإن هناك أسباباً عديدة تجعل الوصول إلى البناء العقلي الصحيح أمراً صعباً ومستحيلاً، من هذه الأسباب:

1 ـ **الحرمان الحضاري**[1]: الأفراد الذين يعيشون في بيئات حضارية محلية منعزلة عن الينابيع الحضارية، لا يتيسر لهم إلاّ الحصول على درجات منخفضة في اختبارات الذكاء. واختبارات التحصيل المدرسي.

2 ـ **اتجاهات سلبية**: إذا كان انعدام الفرصة هو السبب الوحيد للقابلية المنخفضة في النواحي الدراسية، كان من المحتمل إصلاح هذا النقص عن طريق إتاحة فرص جديدة مضاعفة، أو تمرينات علاجية كافية في المدرسة؛ على أن كثيراً من المراهقين يكونون ضحايا سنوات من التأثيرات السيئة والفشل في الأعمال المدرسية. لذلك تسود عندهم الاتجاهات السلبية، فنجدهم قد كوّنوا لأنفسهم صورة قاتمة **ومستوى** منخفضاً للطموح مما يستبعد معه أن يكون للبرامج المدرسية العادية تأثير كبير عليهم؛ المعلوم أن القدرات العقلية الجيدة لا تنمو إلاّ إذا توافرت الدوافع القوية والاتجاهات السليمة.

3 ـ **الإهمال وسوء الرعاية**: إن أطفال مؤسسات الرعاية والأطفال الذين لا يجدون في بيوتهم إلاّ الإهمال الشديد، والذين يعيشون حياة منعزلة عن غيرهم من الأطفال والراشدين، والذين تقع عليهم العقوبات القاسية، قد يتعرضون لدرجة من الاضطراب بحيث يعجزون عن التعلم.

بعض مظاهر القدرات العقلية لدى المراهق:

1 ـ **التخيل**: بالرغم من أهمية التخيل في المراهقة وحيث إن الاهتمامات الفنية تزداد في هذه المرحلة (الشعر، القصص، الأغاني، الرسوم)، فإن الدراسات العلمية قليلة جداً، ولم يوضع مقياس خاص لقياس التخيل لدى المراهقين، إنما تستعمل في العادة لقياس التخيل، طرق مقارنة الرسوم الحرة أو ذات الموضوع المحدد ذاته لدى الأطفال والمراهقين، ووسائل تكملة الجمل أو رواية القصص حول موضوعات طبيعية تخيلية ومنها ما يقرب من الروائز الإسقاطية: رائز. T.A.T أو روشاخ.

إن التجارب التي أجريت على بعض الفتيات 10، 14 سنة أظهرت أن نصفهن تقريباً يروين قصصاً شائعة ذات أسلوب واقعي، ونصفهن الآخر يظهرن القدرة على التخليل؛ فالقلة القليلة منهن يظهرن كثيراً من التخيل الإبداعي.

إن مثل هذه التجارب وغيرها سمحت باستنتاج أن التخيل يتوقف على نمط

---

(1) بلير و جونز، سيكولوجية المراهقة للمربين، ترجمة أحمد عبدالعزيز.

الشخصية بقدر ما يتوقف على خصائص المراهقة بذاتها؛ بسبب أن المراهقة تسمح بظهور القدرة على التخيل بالحدود التي يتوفر فيها للمراهق الاستعداد لذلك.

وفي تجارب أخرى وجد أن الأفراد يختلفون في نقاط ثلاثة:

1 ـ إن الأطفال يؤكدون على الحركة والفعل، بينما يؤكد المراهقون على العواطف والأفكار لأبطال القصة.

2 ـ بينما الأطفال يظلون في حدود الموضوع الرئيسي، نجد أن المراهقين يدخلون الكثير من التجميل والإضافات الفنية.

3 ـ أسلوب الأطفال رتيب، بينما أسلوب المراهقين يتصف بالكثير من التغيير والتأرجح في اللهجة والنبرة الانفعالية.

إن بعض الدراسات تذهب إلي القول إن الاستعداد للتخيل الإبداعي هو الذي يحدد درجة التخيل أكثر مما تحدده المراهقة بذاتها، وإن الأشخاص الذين يتمتعون بهذا الاستعداد يظهرونه أثناء المراهقة. ولكن هذه الدراسات لا تأخذ بالاعتبار الحياة الانفعالية للمراهقين، والمآزم النفسية التي يتعرضون لها، ووضعه الاجتماعي ـ الاقتصادي، ونمط شخصيته:

ـ الشخصية المنطوية أكثر ميلاً إلى التخيل من الشخصية المنبسطة.

ـ المآزم الانفعالية تؤدي إلى تذبذب الخيال من الغنى المفرط إلى الفقر المفرط.

فهنا تتداخل عمليات نفسية وأواليات (الجانح العصابي) والهروب من الواقع إلى الخيال.

ـ درجة الذكاء ونوعه (عملي، لفظي..) وعلاقته بالتخيل الإبداعي.

ـ الوضع الاقتصادي ـ الاجتماعي:

المراهق العامل والذكاء العملي، والمراهق الغني والذكاء المجرد والتخيل. في كل الأحوال يلاحظ أن للتخيل وظائف أساسية أهمها الابتعاد عن الواقع بغية السيطرة عليه، والتحكم في معطيات الواقع الداخلي والخارجي (أحلام اليقظة لدى المراهق).

ب ـ **التذكر**: إن تطور القدرات العقلية لدى المراهق تنعكس على قدرته في الحفظ واستيعاب المعلومات وحفظها لمدة طويلة. وتتميز قدرة المراهق في التذكر والحفظ على قدرة الطفل لأنهما قائمان على الإدراك والفهم.

جـ ـ **تطور الاتجاهات والقيم**: من أهم نتائج التطور العقلي لدى المراهق، إخضاع القيم والتعاليم التي يتلقاها لحكم العقل؛ فهو لم يعد يتقبل ما يفرض عليه فرضاً. بل يحاول أن يخضع قيم الأهل والمجتمع لموازين الواقع الذي يعيشه، لمحكات قدراته العقلية.

ونتيجة لاتساع مصادر المعرفة لدى المراهقين، وتركيزها على أساس الأحكام العقلية والمنطقية، تتخذ اهتمامات المراهقين اتجاهات مختلفة، وتتناقص الاهتمامات المدرسية نتيجة لتزايد الاهتمامات الاجتماعية والجنسية، وتطلعاتهم المستقبلية (المهنة، الزواج)؛ ويتصف الحس الأخلاقي لدى المراهقين بالوضوح والجدية، ويتخذ تماهيه (identification) توجهاً جديداً، فيلاحظ أن المراهق يميل إلى التماهي بالراشدين والأشخاص المرموقين في المجتمع والناجحين وذوي الجاذبية الذين يشاهدهم في وسائل الإعلام المرئية، أو يسمع عنهم في وسائل الإعلام الأخرى.

شروط ظهور التفكير التجريدي

عند كلامنا عن خصائص النمو العقلي في المراهقة، قلنا بأن المراهقين يتمتعون بالتفكير التجريدي أو الشكلي منذ سن 11، 12 سنة، ولكن ليس من المؤكد أن كل المراهقين، حتى كل الراشدين يصلون إلى التفكير التجريدي، الفرضي ـ الاستدلالي، أو العمليات العقلية العليا؛ فقد كشفت التجارب التي تمت في حقل الدراسات الثقافية المقارنة، عن غياب العمليات العقلية لدى الأميين من أبناء الثقافة التقليدية، كما كشفت هذه التجارب أيضاً عن عدم وجود هذه العمليات لدى بعض المتعلمين من أبناء هذه الثقافات.

كشفت التجارب أيضاً عن انخفاض القدرات العقلية لدى «المتعلمين» من أبناء الثقافات التقليدية مقارنة بزملائهم في الثقافات الحديثة. وكشفت هذه التجارب أيضاً عن تساوي القدرات العقلية لأبناء الثقفات التقليدية الذين ولدوا وتربوا في الثقافات الحديثة مع القدرات العقلية لأبناء هذه الثقافات.

وتوضح الدراسات الثقافية المقارنة، أن ظهور القدرة على التفكير التجريدي لا يعود إلى عوامل بيولوجية وعمرية فحسب، إنما يعود إلى عوامل ثقافية واجتماعية أيضاً.

توضح هذه الدراسات، أولاً، أن القدرة على التفكير التجريدي لا تعود إلى

عوامل بيولوجية كما قلنا سابقاً، إنما تعود إلى عوامل ثقافية واجتماعية. وإن القدرة على التفكير التجريدي لا تظهر لدى الفرد إلاّ عند بلوغه سنّاً معيّناً. ويعتمد ظهور هذه القدرة على اكتساب التفكير التجريدي على وجود تفكير تجريدي بالإمكان اكتسابه.

يعتمد ظهور التفكير التجريدي لدى الفرد، بهذا الشكل، على وجوده في البدء في المجتمع الذي يعيش الفرد فيه، لا يظهر التفكير التجريدي لدى ذاك الفرد بغض النظر عن قدراته البيولوجية. بصورة أوضح، وجود التفكير التجريدي في المجتمع الذي يعيش الفرد فيه شرط ضروري. وإن كان غير كافٍ لظهور التفكير التجريدي لدى الفرد.

وتوضح الدراسات الثقافية المقارنة أن التفكير التجريدي لا يظهر لدى الفرد إلا إذا كان ذلك الفرد يقوم بعمل يستحيل القيام به بدون تفكير تجريدي. كما رأينا، لا ينتقل أبناء الثقافات التقليدية من مرحلة التفكير الحدسي إلى مرحلة التفكير المحسوس ثم إلى مرحلة التفكير التجريدي إلاّ إذا كانت هناك أعمال يستحيل القيام بها إلاّ بعمليات عقلية عليا.

ثالثاً: النمو الانفعالي

يمثل النمو الانفعالي جانباً رئيساً في بناء شخصية المراهق، ومحوراً رئيسياً لتوافقه أو عدمه. فتغير المعالم الإدراكية للبيئة المحيطة به من جهة، والتغيرات النمائية الجسمية أو الغدية المتسارعة من جهة أخرى تترك آثاراً انفعالية كبيرة في الشدة والعمق، وما يصاحبها من استثارة للدوافع والميول والرغبات تؤثر في شخصيته وسلوكه، وتتضح مظاهر النمو الانفعالي لمرحلة المراهقة في ما يلي:

1 ـ مشكلة الذات:

لا يمكن القول إن «الأنا» تبرز هكذا فجأة في المراهقة، لأنه ليس صحيحاً أن الفرد يعي فجأة في مرحلة المراهقة ذاته، ويدرك أنه موجود وأنه شخص ما؛ إن الوعي الذاتي يتهيأ في مرحلة الطفولة كما ذكر «أريكسون».

وهذا الوعي يتأكد ويتوضح في المراهقة حيث يبحث المراهق في اكتساب تقدير الآخرين وإعجابهم، وخصوصاً اهتمامهم، فهو بحاجة إلى اعتراف الآخرين به لكي يعترف بذاته.

إن وعي المراهق بذاته يتطور من خلال مستويين: مستوى العلاقات بالآخرين، ومستوى حياته الخاصة. وهذان المستويان يؤديان إلى اختلاف بين تصرف المراهق الخارجي وتصرفه الداخلي تجاه ذاته؛ فالوعي الذاتي يدفع المراهق إلى العزلة والانطواء على الذات، مع الميل إلى السرية، وإلى موقف دفاعي يحمي به أسراره، وهدف هذا الانطواء هو الذات، فهو يريد أن يعرف من هو، وما سيكون عليه.

والواقع أن المراهق يجد نفسه في مرحلة استثنائية تجعله يستفيد من هذه التجارب الحميمة ويكوّن لنفسه رأسمالاً عاطفياً يساعده على تفتح شخصيته، وأن مصادفة مراهق منفتح وسهل الارتباط الاجتماعي يميل إلى الحياة واللهو، لا يعني شيئاً بالنسبة إلى شخصيته العميقة التي تستمر في تطورها بشكل مستقل عن تصرفها الخارجي.

والوعي الذاتي لدى المراهق يتخذ وجهان: وعياً ذاتياً تجاه الآخر، ووعياً ذاتياً تجاه الذات. إن هذه الازدواجية تفسر إحساس المراهق، والأهمية التي يعطيها لأفعاله وعلاقاته مع المحيط. هذا الإحساس المفرط يمكن لأن يكون مصدراً لعذابه، ولكنه في

أغلب الأحيان، يترجم بإحساس للانفتاح على الحياة.

إن هذه الاستعراضية الذاتية عبَّر عنها «دبس» في كتابه «الغرابة عند الأحداث[1]» بالميل إلى التجديد والرغبة في إظهار الذات، سواءٌ كان في اللباس أو في الجدل المنطقي؛ ففي اختيار الثياب يميل المراهق إلى التمايز والتفرد، غايته ليس اتباع الموضة بقدر ما يقصد إلى الإشارة ولفت النظر.

وعن طريق الحكم العقلي والجدل، يحاول المراهق أن يدفع بذاته إلى اكتشاف عالم المفاهيم؛ فمناقشة المبادىء والطرح السليم والرفض المنطقي ليست جميعها سوى مظهر لبهلوانية فكرية؛ فالمراهق يدفع باستنتاجاته إلى حدِّ التناقض والتمسك بالنتائج معها كانت، ويظهر حكمه العقلي كأحد الوسائل التي يعمل بواسطتها على تحقيق ذاته.

تحقيق الذات:

يتبع مرحلة الانطواء والاكتئاب واكتشاف الذات مرحلة ثانية هي مرحلة الثقة في هذه الذات وتحقيق إمكاناتها، وهذه الثقة تظهر من خلال تأكيده لذاته والاعتزاز بها.

والسؤال هو: هل تتطابق هذه الذات مع الصور التي يريدها أو مع الصور التي كوّنها المحيط عنه.

يرى دبس أن المراهق يحاول أحياناً أن يقدم للآخر عناصر مستمدة من الآخرين وكأنها منه، ليعطي لنفسه وللمحيط فكرة عالية عن قيمته؛ فالمشاريع الكبيرة التي يبنيها تعزز لديه وهم القوة الذي يعوض به عن الشعور بدونيته عندما يقارن سلطته بسلطة الراشد. فأحياناً يكذب على نفسه ويقلد في تصرفاته تصرفات شخصيات لها مركزها الاجتماعي، دون أن يميز بين ما هو طبيعي وما هو منقول[2].

ويقع المراهق في مبالغة تقدير ذاته، وفي فترات العزلة يتضخم لديه الشعور بالقوة والغلبة فيبدو للآخر أن هناك هوة بين ما يرغب فيه الكائن وبين ما هو ممكن.

التماهي بالمثل وتحقيق الذات:

إن المراهق في بحثه عن ذاته بحاجة إلى سند خارجي لشعوره بصعوبات تشكل

---

(1) M.Debesse: La crise d'originatité Juvenile, P.U.F., Paris.

(2) المرجع السابق :M.Debesse

شخصيته الداخلية؛ فالسند العاطفي المتأتي من الأهل والأخوة والأصدقاء يبدو أنه عاجز عن مساعدته، لأن المراهق يخاف من استغلال الآخرين لهذا العنصر العاطفي في عملية ابتزازه.

ويظل الطفل في بحثه عن هذا الشخص - السند، متأثراً بشيء من السلوك السحري - العاطفي (الفتاة تنتظر فارسها المخلص أو الساحرة لحل مشاكلها).

والمثال الذي يستمد منه المراهق دعامة لشخصيته قد لا يكون واحداً من أفراد أسرته ولا من محيطه، بل هو انعكاس لذاته. ويظهر الميل لدى المراهقين في خلق مثالاتهم؛ فالاحصائيات تظر أن الذكور يختارون أبطال الرياضة، بينما الإناث يخترن ممثلين وممثلات السينما، ولكن هذا الاختيار قابل للتبديل، واختيار الرياضيين والممثلين يحل محله اختيار الروائيين ورجال السياسة والزعماء السياسيين.

ولا شك في أن صورة مثال المراهقين وصورتهم الذاتية، تكشف عن اهتماماتهم ومشاغلهم وهي تتغير بحسب العمر.

وفي تحقيق أُجري مع المراهقين حول الصفات الذكورية والأنثوية التي يودون أن تكون لهم جاءت أغلب الإجابات مؤكدة، أولاً على الصفات الجمالية: الأناقة، القوة الفيزيائية، القدرة الرياضية؛ وثانياً: على صفات الإرادة والسيطرة الذاتية والحس بالواجب والمثابرة والذكاء والاخلاص والشفقة وعدد من المراهقين، اقتصرت إجابتهم على نفي وجود نمط مثالي، واعتبار أن المثال هو أن يكونوا هم ذاتهم.

المثالية وتحقيق الذات:

إن المثالية تشكل جانباً بارزاً مهماً في وعي المراهق لذاته، إنها الجانب الأخلاقي الذي يلعب دوراً بارزاً في أزمة المراهقة، وخصوصاً في مرحلة التضخم والمبالغة في تقدير الذات؛ وتكون مثالية المراهق شديدة التطرف تسير بحسب قانون «الكل أو لا شيء» وهي مظهر في هذه المرحلة، تجسد التعبير الأخلاقي عن توتراته ومعارضته للواقع.

أ- مظاهر المثالية:

من مظاهر المثالية لدى المراهق الحاجة إلى الصراحة واحترام الذات التي اكتشفها. من هنا، فإن اتهام الآخرين له بالكذب يؤلمه، ويبدو الكذب عملاً جباناً وخيانة تجاه الذات.

وتصبح مسألة الاحتفاظ بالسر وعدم البوح به من الشروط الأساسية التي تقوم عليها الصداقة، والعلاقة بالصديق تحددها قدرته على الوفاء والإخلاص والكتمان.

وتعطُّش المراهق إلى كل ما هو مثالي ومطلق، يخلق لديه شعوراً قوياً بمفاهيم الشرف والحس الأخلاقي، والمبالغة في الحس الأخلاقي يجعله يتردد في القيام بأي فعل يظهر كأمر خطير لا يمكن إصلاحه.

ويكتسب المراهق الشعور بالمسؤولية؛ فهو إذا ارتكب خطأ ما، يعترف ويقر بهذا الخطأ، وهو يتحمل المسؤولية بكفاءة. ويكفي أن نعهد إليه بأمرٍ ما، ليشعر أنه أصبح قادراً ومحلاً لثقة الراشدين، مما يقوي لديه الشعور والاعتزاز بذاته. إن هذه المبالغة في المشاعر الأخلاقية تولد لدى المراهق فكرة عالية عن مفهوم الكمال الذي يسعى إلى بلوغه، وتدفعه إلى الشعور بالفاصل الكبير بين ما هو عليه، وبين ما هو يحاجة إلى أن يكون عليه.

ب ـ التناقض في المثالية:

والواقع أن الاهتمام الخلقي الكبير لدى المراهق لا يخلو من التناقض والتأرجح، وغالباً ما يلاحظ في تصرفاته ما ينم عن احتقار لبعض المبادىء الأخلاقية واللياقة والاحترام، معتبراً أنها تقييد لذاته التي اكتسبها؛ فمن هنا التذبذب في مواقفه وعلاقاته: تارةً يتشدد، وتارةً يكون منفلتاً، وتارةً يظهر مثالية مفرطة تقابلها وقاحة ظاهرة.

يُفسر هذا التناقض في سلوك المراهقين بجهلهم العالم، وبنقص في خبراتهم، فكونهم يجهلون شروط الفعل، فإنهم يبنون لأنفسهم عالماً مثالياً دون اكتراث بما يتطلبه تحقيقه.

تحقيق الذات:

وتحقيق الذات عند المراهق ينعكس مبالغةً في حب الذات، اعتقاداً بأنه شخص مميَّز يمتلك قيمة فريدة. إن هذا الشعور يؤدي إلى التضخيم في قدراته والاستباق في تفكيره؛ فهو يرى نفسه متوجاً بالشهرة والمجد؛ والمراهقة هي مرحلة المشاعر القوية والطموحات التي ترمي إلى إصلاح المجتمع وتغيير سلوك الناس؛ فالمراهق يطغى عليه الشعور بعظمة شأنه وفرادة عبقريته، ويدفعه هذا الشعور إلى الحكم على ذاته بأنه أعلى مرتبة وقيمة من الآخرين، مما يولد لديه الرغبة في السيطرة والقيادة.

إن تضخم الذات لدى المراهقين يؤدي إلى شعور بالألم والعذاب النفسي، ولدى

بعضهم إلى اضطرابات نفسية خطيرة؛ فالتوتر الداخلي يكون أشد بقدر ما تكون إرادة الضبط الذاتي أقوى. من هنا الرغبة لدى المراهقين للتخلص من الذات والتحرر من قوة ضغط الذات الطاغية، وفك قيود العزلة والانكماش الذاتي، ومحاولة التعبير عن الذات بوسائل مختلفة بحسب شدة الأزمة التي يعاني منها. وهذه الوسائل تتراوح بين الاعتراف بمعاناته، عن طريق الكتابة أو الرسم، إلى حالات عدم الثقة بالذات، وانعدام الأمن والطمأنينة، فإلى الانتحار.

والانهيار الانفعالي إلى جانب عدم الثقة بالذات والشعور بعدم الاطمئنان، تدفع جميع المراهقين إلى اللجوء إلى أواليات دفاعية[1] لمحاولة ضبط هذه الانفعالات، معتبراً أن ذلك يحفظ له كرامة الذات التي توصل إليها؛ لكن محاولات الضبط الذاتي تولد لديه توترات شديدة لا يمكنه في أغلب الأحيان السيطرة عليها لذلك يلاحظ لدى المراهق الانفجار العنيف في حالات الخوف والغضب والفرح، والذي تتبعه حالات من الاكتئاب.

إن هذا الانفجار العشوائي هو سبب شعور المراهق بالخطر من قيمة ذاته، وشعوره بأنه ضحية انفعالاته؛ فالتوتر المستمر يؤدي إلى حالة مزمنة من الاكتئاب والبرودة العاطفية؛ وبقدر ما تكون محاولات الضبط قوية تكون هذه الاتجاهات واضحة؛ وحالة الاكتئاب يمكن أن تؤدي في النهاية إلى الانتحار.

وخلصت إحدى الدراسات التي تعرضت لمشكلة التوافق مع الذات لدى الشباب في دولة الكويت، والتي قام بها فريق الباحثين العاملين بجهاز الدراسات والبحوث الاستشارية لصاحب السمو أمير الكويت (1985)، واستخدمت مقياساً يحدد مدى تقدير الشباب وفهمهم لذواتهم لدى كلٍّ من الذكور والإناث، إلى النتائج التالي:

1 - تعتبر مشكلات التوافق مع الذات إحدى الاهتمامات التي تشغل بال الشباب في دولة الكويت.

2 - تختلف مشكلات التوافق مع الذات لدى الشباب في دولة الكويت باختلاف الجنس والجنسية والحالة الاقتصادية.

3 - تتمثل مشكلات الشباب الأساسية في دولة الكويت، في عدم احتمال مواقف

---

(1) Mécanismes de défenses.

الإحباط أو الفشل، عندما يعترض طريقهم عارض يمنعهم من الوصول إلى الهدف المطلوب.

4 ـ إن أحد أسباب عدم تحمل الشباب للفشل ناشىء عن عدم تحقيق الهدف هو الدلال الزائد الذي يعيشه الطفل في مراحل الطفولة السابقة.

5 ـ تتعلق أهم مشكلات الشباب في التوافق مع الذات بالقصور المتصل بعملية التنشئة الاجتماعية في مراحل الطفولة المبكرة.

6 ـ ما يتعرض له الشباب في دولة الكويت من مشكلات متعلقة في مجال التوافق مع الذات تحتاج إلى عملية التوجيه والإرشاد والمساعدة في عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة.

2 ـ الخجل:

نميز في الخجل حالتين:

ـ حالة الخجل ـ الانفعال .La Honte

ـ حالة الخجل الشعور .La Timidité

في حالة الخجل ـ الانفعال: تطغى التغيرات الفيزيولوجية على ما عداها لكنها بالرغم من عنفها وفجائيتها تزول بزوال الموقف المثير للانفعال.

في حالة الخجل ـ الشعور يعاني الفرد من إحساس دائم بالارتباك والخوف من تقييم الآخرين له.

وللخجل أسبابه العميقة التي تعود إلى الطفولة، وفي المراهقة يضاف إلى هذه الأسباب المشكلة الجنسية والتغيرات الجسدية.

والخجل على وجه التحديد شعور ناتج عن موقف الفرد تجاه الآخرين (الخشية من لوم الآخرين)، ونقص الثقة في النفس عند مواجهتهم.

يعرّف «فرويد» الخجل بأنه الخوف من السخرية والسبب عدم تحقيق مثال الذات (الأنا). أما «ريكروفت» فيعتبر الخجل عارضاً عصابياً؛ فالخجول عنده تقييم زائد لنفسه، ويخشى من عدم مشاركة الآخرين له في هذا التقييم.

وقد يكون الخجل ضمن دائرة السوية عندما يحدث في المواقف المثيرة له وفي العادة يزول بزوالها؛ ولكنه يصبح حالة مرضية عندما يصبح سمة طبيعية من ضمـ

متلازمة طبع يتسم بالانطوائية والانسحاب.

أعراض الخجل:

ـ **منها الفزيولوجية**: احمرار الوجه، تصبب العرق، التأتأة، التشنج في الحبال الصوتية وفي القفص الصدري، التنفس اللاهث المضطرب، الارتباك، الحركة الفاشلة الخائبة، خفقان القلب، الشعور بالإعياء، التعثر بالمشي، إبدال الكلمات وسوء النطق.

ـ **ومنها النفسية**: ضيق مجال الوعي (الذي يكاد ينحصر بالموقف المخجل) تعطل الذكاء، الاجترار العقلي، الذعر، الضيق، الرغبة في الهروب والانزواء، تجنب الموقف، رفض المواجهة والشعور بالنقص وقلة الثقة في النفس، التردد، الشعور بالذنب، والرغبة في معاقبة الذات.

الخجول إنسان مصدود[1] Inhibé يريد أن يستجيب للموقف بالشكل الطبيعي، لكن طاقته مصدودة مكبوحة لذلك نلاحظ لديه العجز والقصور والتردد وضعف الإرادة.

لا يتمكن الخجول من التكيف بالشكل السليم ولا من صياغة طلباته أو الرد على ما يطلبه الغير منه.

في الوقت نفسه نجد عنده حنقاً وغيظاً من حالته فيدافع ضد الخجل بأساليب غالباً ما تكون التوائية وغير سليمة (الحماقة مثلاً). تعني الحماقة القيام بتصرفات غير ملائمة في ما بينها، يناقض الواحد منها الآخر.

أسباب الخجل:

تعود أسباب الخجل في معظمها إلى التربية الخاطئة في الطفولة، حماية مفرطة للطفل، وصد كثير لعفويته، ازدواجية المربين في التعامل معه (يمنعونه مرةً عن شيء ثم يحثونه على فعله مرةً أخرى).

إن الحماية المفرطة للطفل بالإضافة إلى تولي الأهل القيام بشؤونه يؤدي به إلى ضعف الثقة في النفس وإلى الخوف والانسحاب وتهيب المواقف الجديدة الصعبة.

وإذا أضفنا عدم تشجيع المربين له على العفوية والانطلاق وحرية التعبير والحركة ندرك مدى الضرر الذي سيلحق بشخصيته من جرّاء هذه التربية الخاطئة.

---

(1) R.B. Cattel: La personnalité, Tomes I et II, P.U.F., Paris, 1956.

«في المراهقة نلاحظ فوران الغرائز من جنس وعدوان فتشتد في مقابلها الموانع المتكوِّنة منذ الطفولة، وتستفيق العقد، التي تستمر فاعلةً في نفس المراهق كلما وجد نفسه في مواقف تنافسية تستوجب منه إثبات الذات فيحدث العكس تماماً لأن التنافس يوقظ في لاوعيه المنافسة الخاسرة مع الأب من خلال عقدة «أوديب الطفلية[1]».

من أسباب الخجل الأخرى الإحباط العاطفي والشعور بالنبذ والجروحات النرجسية التي تشكِّل طعنة لتقدير الذات.

الحياء عند المراهق مرتبط بموقفه من التغيرات الجسدية التي تحدث لديه لا سيما التغيرات التناسلية (الحياء غير الخجل).

تتوسع دائرة الخجل من الأهل إلى رب العمل، معلم الصف، رجل الشرطة، صاحب السلطة، مما يؤدي بالخجول إلى الفشل في التكيف المدرسي والاجتماعي.

يزداد ارتباك الخجول كلما كثر عدد المحيطين به والمراقبين له لأنه في الأساس يبالغ في تقديره لذاته، فيعمد بالتالي إلى المبالغة في تقدير الأخطاء التي ستصدر عنه فيقع فريسة الخجل خوفاً من النقد والسخرية، إن خوف الخجول من النقد والسخرية يصبح هاجساً بالنسبة إليه لأن في ذلك تبخيساً لذاته المهزومة التي لا يستطيع الدفاع عنها، إن دفاع الخجول يأتي دائماً متأخراً عن الموقف المخجل له ولا تظهر عفويته وإرادته في الرد إلا بعد زوال هذا الموقف.

يعاني الخجول أيضاً من الانفعالية الزائدة التي تعطل قدرته على التصرف المتكيف السليم؛ وبما أن قدرته على الفعل مصدودة فالانفعال هو البديل.

تتراوح المواقف المخجلة بين التعاطي مع الجنس الآخر وبين التعامل مع من هم أكبر منه سناً ومركزاً.

الخجول ضحية للتربية المتسلطة القامعة للعفوية، والخجل مؤشر على استمرار العقد النفسية الطفلية الذي يزيد فوران الغرائز في المراهقة في تفاقمها ومن اشتداد ردات الفعل عليها.

ردات فعل الخجول:

هناك التظاهر بعدم الخجل (الإنكار) تصنُّع الجرأة والوقاحة ، العدوانية، تصنع

---

(1) عبدالغني الديدي: مرجع سابق.

المرح، المزاح المستمر، الهزل، السخرية من الآخرين، القساوة، التكبر، الجفاف، احتقار الآخرين وانتقادهم، المبالغة في الثقة في النفس إلى حد الصلف والغرور، الاندفاعية وعدم التردد، الطموح اللامحدود، الرغبة في الظهور بمظهر الكمال وعدم الخطأ.

الجدير بالذكر أن هذه التصرفات ما هي إلاّ واجهة دفاعية تهدف إلى إيهام الذات وإيهام الآخرين بعدم وجود الخجل، أو هي تهدف إلى التعويض عنه والهروب منه.

وهنالك اللجوء إلى تجاهل الجنس الآخر، أو تبني السلوك الماجن؛ والخجول هنا يخفي فشله في إقامة علاقات صحيحة خلف ستار العدوانية الساخرة.

علاج الخجل:

في مطلق الأحوال فإن الوعظ والإقناع بالتغلب الإرادي على الخجل ليس بكبير فائدة، لأن معرفة الأسباب الواعية لا تزيل الأسباب العاطفية اللاواعية، لا سيما إذا اتخذ الإقناع شكل الوعظ التسلطي القاسي المبخّس لقيمة الذات، وهذا من شأنه زيادة الشعور بالنقص والإحباط.

لذلك ينبغي العمل على جبهتين: الأولى سلوكية تشريطية ضمن إطار العلاج السلوكي: إزالة التشريطات (الارتباطات) السابقة وخلق تشريطات متكيفة. تدريبات حسية ـ حركية من شأنها تعويد الخجول عدم الارتباك في المواقف المخجلة، تعزيز الإرادة وتدعيم الثقة في النفس عن طريق التشجيع وإطلاق العفوية، اللجوء إلى الرياضة من أجل زيادة السيطرة على الجسد وتحسين الأداء الحركي.

في هذا الإطار يمكن أن نشجع المراهق الخجول على التنافس الإيجابي مع الآخرين وعدم السماح له بالانزواء والانسحاب، ينبغي إشراكه في النشاطات التنافسية كي يستعيد ثقته في نفسه خصوصاً بعد التعرف على نقاط القوة عنده واستغلالها إيجابياً. نشركه كذلك في المسؤوليات الاجتماعية من خلال الأنشطة الكشفية والأندية والدفاع المدني.

«والثانية تقوم على استكشاف العقد والجروحات والإحباطات الطفلية ومعالجة الشعور بالنقص وتعديل المواقف الخاطئة بالنسبة إلى الجنس وإلى العدوان، كل ذلك يهدف إلى إعادة الاعتبار للذّات وتقبلها وتحرير الخجول من التشبث بالماضي الطفلي

والرواسب الأوديبية كنواة أولية لشعوره بالخجل[1]».

في جميع الحالات ينبغي تشجيع الخجول وليس تحقيره أمام رفاقه على أقل هفوة تصدر منه لأن التحقير يزيد انطوائيته وبالتالي يزيد من عدوانيته التي قد تتراكم لتنفجر فيما بعد لأقل سبب أو تكبت فتسبب له سلوكاً مازوشياً (أذى الذات) مرضياً.

وفي حال وجود عاهة جسدية ينبغي مساعدة المراهق على التعويض عنها والتسامي بها.

كما قد يتسم العلاج النفسي للعصاب (أمراض نفسية) الذي يشكل الخجل أحياناً أحد أعراضه البارزة.

الحياء (لا سيما عند الفتيات):

الحياء[2] شعور مرتبط بالجنس أكثر من غيره، فهو يستيقظ مع الجنس من خلال التصورات العقلية والتداعيات اللاواعية التي تكون محورها إمكانية ممارسة السلوك الجنسي.

الحياء ليس فقط شعوراً فطرياً يتضمن الموقف من الجسد وخصوصاً من الأعضاء التناسلية (نلاحظ الحياء لدى بعض الحيوانات عند ممارسة الجنس كالجمال مثلاً)؛ وإنما هو أيضاً نتاج التربية والمواقف المكتسبة من الجنس؛ وهو لذلك يختلف من بيئة إلى أخرى.

(إن سفور البنت عن وجهها بالنسبة لبعض المجتمعات يعتبر موضوعاً للحياء، بينما لا يعتبر ذلك السفور سبباً للخجل في مجتمعات أخرى).

الحياء إذاً يكتسب بالتربية بالرغم من كون أساسه بيولوجي أولي، فالمعلوم أن الإنسان البدائي يميل إلى الانزواء عند ممارسة الجنس.

«في المراهقة يزداد الحياء لا سيما عند الفتيات، ويتمهظر من خلال إخفاء الجسد عن الأنظار، الحياء هنا سلوك ضد ـ جنسي ولكن بشكل ناقص: إنه سلوك هروبي أمام ممارسة الجنس من دون التوصل إلى الهرب الكامل. لكن هذا السلوك من قبل الأنثى

---

(1) M.Sherman: Mental Conflicts and Personnality, New-York, Longmans, 1938.

(2) ملاحظة: نفضل التربية السليمة والتهذيب ومعرفة آداب السلوك بدل الخجل والحياء.

يعزز أنوثتها ويثير الذكر وهو بداية للفعل الجنسي وتمهيد له. الحياء تعبير حقيقي عن طبيعة الحياة الجنسية عند الأنثى ونعني بذلك الإغواء السلبي الذي يهدف إلى استمالة الذكر وجذبه عن طريق الهرب منه التوجه الصريح المباشر إليه[1]».

يتراوح سلوك الحياء بين الخجل الشديد والتحفظ والغنج والدلع مروراً بالانزعاج والتواضع.

وهو يتجلى خارجياً من خلال احمرار الوجه ومنعكسات (rèflexes) إخفاء المفاتن ومناطق الإثارة (حني الرأس، خفض العينين، ستر الوجه والساقين، وضع اليدين على الثديين).

الحياء السوي شعور أنثوي نبيل. إنه ردة فعل على الحيوانية المتهتكة؛ وهو سلاح إغوائي تستعمله الأنثى في مواجهة الذكر، وهو من الناحية الأخلاقية والاجتماعية سلوك مستحب ذو قيمة أخلاقية عالية ينبغي المحافظة عليه.

إلاّ أن التربية المتزمتة المتشددة تبالغ في التركيز على الحياء فتسبب بذلك خنقاً للعفوية وسحقاً للشخصية واحتقاراً للجسد. وفي هذه الحالة تتعرض الفتاة للصد في السلوك والخوف ولا سيما في المجتمعات المتشددة التي يمارس على الأنثى نوعٌ من الاستلاب الجنسي (aliénation) على حدِّ قول مصطفى حجازي[2].

الاستلاب الجنسي هو استغلال لذلك الشعور النبيل بالحياء عند الأنثى قد يذهب إلى اختزال المرأة إلى حدودها الجسدي، وإلى اختزال الجسد إلى بعده الجنسي، هذا الاختزال يؤدي مباشرة إلى تضخم البعد الجنسي لجسد المرأة بشكل مفرط على حساب بقية أبعاد حياتها. إنه يمحور المرأة ويركزها حول المسألة الجنسية كما يفجر كل مخاوفها الوجودية حول حلول كارثةٍ ما تعصف بوجودها، هاجس المرأة قبل الزواج يتحول إلى قلق حول غشاء البكارة وسلامته وإلى قلق حول قدرات الجسد على حيازة إعجاب الرجل بضمان الزواج. هذا التركيز يفجر عند المرأة أشد الرغبات وأعظم المخاوف في آن واحد معاً. تلك هي المعضلة الأولى التي تتعرض لها المرأة في الاستلاب الجنسي.

---

(1) M.Debesse: Adolescence, Coll. P.U.F., Paris, 1960.

(2) مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1986.

الحياء شعور طبيعي عند الأنثى ينبغي على التربية أن تحسن توجيهه بما يحقق أنوثة الفتاة من جهة، ويحقق انطلاقها وانفتاحها على الحياة والمجتمع من جهة أخرى.

3 ـ العنف والعدوان:

ـ العنف ضد الذات (يبلغ أقصاه الانتحار).

ـ العنف ضد الآخر (الإجرام والإرهاب).

تتميَّز المراهقة بازدياد النشاط الغريزي من جنس وعدوانية وازدياد الموانع الذاتية والخارجية العاملة على صدها وكبحها، وبالتالي الشعور بالإحباط والميل إلى تصريف الفائض من هذه العدوانية إما عن طريق الذات وإما عن طريق الاعتداء على الآخرين.

1 ـ بالنسبة لتصريف العدوانية على الذات: نلاحظ ميل المراهق أحياناً إلى العقاب الذاتي الذي يتخذ أشكالاً متعددة مثل:

ـ تبني الفشل الدراسي أو المهني.

ـ التشدد على الذات وعلى الجسد من خلال الزهد والتقشف والعدوان.

ـ عدم الرضا عن الذات والميل إلى التكفير عن ذنوب لم ترتكب، والنقد القاسي للذات.

ـ الأمراض والاضطرابات النفسي ـ جسدية (السيكوسوماتية) مثل بعض الحساسيات وصداع الرأس، فهي تمثل وجهاً من أوجه الكراهية غير المبررة، حيث يعتبر الألم الجسمي أخف وطأة من كره المرء لذاته بسبب عدوانيته الزائدة.

ـ توريط الذات بمشكلات تستدعي العقاب (تمرد، عصيان).

ـ تعريض الذات للأخطار: مثل التدخين، المخدرات، المسكرات، قيادة السيارة بسرعة جنونية، الاستهتار بقواعد الصحة والسلامة، وتبني السلوك المتطرف المضر.

ـ ولعل الانتحار يمثل قمة العنف الممارس على الذات.

2 ـ العنف ضد الآخرين: يتخذ أشكالاً ظاهرة وأخرى غير مباشرة ومتنكرة. صحيح أن التربية تمارس ضغوطاتها على المراهق لجهة كبح العدوانية لكنها لا تفلح دائماً في مهمتها تلك خصوصاً إذا كانت من النوع الشديد القساوة التي لا تسعى إلى تمكين المراهق من التسامي بالعدوانية بالشكل الإيجابي (تنافس، رياضة، كفاح).

في هذه الحال تتراكم العدوانية عند المراهق وقد تنفجر لأتفه الأسباب.

من الأشكال الظاهرية لتصريف العدوانية نذكر:

- الضرب والعض وأنواعاً أخرى للتهجم المباشر مثل تخريب الممتلكات العامة.
- الصراخ والتحدث بصخب.
- العدوان عن طريق الكلام (التهجم الشفهي مثل الشتائم والحط من قدر الغير وعبارات التهكم، نشر الإشاعات والقذف والافتراء وتشويه السمعة والمضايقة، والنميمة، وتصرفات الخداع والتضليل والاحتيال والشطارة..)؛ أما العنف الذي يمثل قمة العدوانية ضد الغير فيتخذ في المراهقة شكل الجنوح، وقد يصل به الأمر إلى حد الإجرام (تكتل المراهقين في عصابات تعتدي على الآخرين وتمارس السرقة وإيقاع الأذى والحط من الكرامة، السرقة، الغش، ألعاب الخداع).

أما بالنسبة للعدوانية غير المباشرة فتظهر من خلال الأشكال التالية:

- الكراهية التعويضية: تحويل الغضب والعدوان من موضوعاتها الأساسية إلى الأشياء (تحطيم أثاث المنزل) أو إلى الحيوانات الأليفة.
- تبني الاتجاهات السياسية المتطرفة والمتعصبة.
- التمرد والعصيان في داخل المدرسة.
- العداء الإسقاطي (إلقاء المسؤوليات الشخصية الخاصة بالفرد على الآخرين).
- الإحساس بالظلم والإجحاف.
- العدوانية المرتدة إلى الذات (أعراض نفس ـ بدنية).
- التوتر الوجودي العام.

العنف كما يقول مصطفى حجازي في كتابه «سيكولوجية الانسان المقهور» يبقى الوسيلة الوحيدة في يد الانسان للإفلات من مأزقه ومن خطر الاندثار الداخلي الذي يتضمنه هذا المأزق؛ والعنف هو السلاح الأخير لإعادة شيء من الاعتبار المفقود إلى الذات من خلال التصدي مباشرةً أو مداورة للعوامل التي يعتبرها مسؤولة عن التبخيس الوجودي الذي حل به والعنف هو الوسيلة الأكثر شيوعاً لتجنب العدوانية التي تدين الذات الفاشلة من خلال توجيه هذه العدوانية إلى الخارج وكلما تجاوزت حدود الاحتمال الشخصي. العنفُ هو الوجه الآخر للإرهاب والقهر اللذين يُفرضان على

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفترض أن يكون المراهق مثقلاً بالقلق المرتبط بنوع من الصراع الداخلي أو الحزن عندما يشعر بالكآبة من غير ما سبب ظاهر، فمثلاً، إذا ما بدا المراهق في حالة من الاضطراب أو القلق من أشياء صغيرة، أو عندما يغضب بشدة من أمور تبدو تافهة وليست بذي بال ولا تدعو إلى هذا الغضب، أو عندما يشعر بالإثم في الوقت الذي لم نجد فيه مبرراً لهذا الشعور، أو عندما يتوقع الفشل في إحدى محاولاته، أو عندما يسلك سلوكاً ينم عن توقع الفشل في الوقت الذي تشير فيه جميع الدلائل بأنه يوفق في مسعاه، أو عندما يصبح عصبي المزاج حاد الطباع مهتاجاً من غير سببٍ، إن جميع هذه الحالات إنما هي بلا شك مؤشرات واضحة تشير إلى وجود القلق؛ ونستطيع أن نتصور أن المراهق قلق نتيجة لصراع نفسي ولا سيما عندما ينساق مرةً بعد أخرى إلى ركوب المخاطر، أو عندما تزداد خصوماته مع الآخرين التي لا مبرر لها والتي قد لا يجني من ورائها الا الغضب والتعب.

وهناك مؤشرات ثلاث تشير إلى وجود القلق. وهذه المؤشرات هي:

1 ـ وجود الإجهاد والتوتر والشكوك المرتبطة بوجود الإنسان والتي تؤثر في حياة الناس أجمعين.

2 ـ توافر الظروف والحالات المتصلة بمرحلة نمو المراهق وما يتبعها من مآزق.

3 ـ المصاعب المرتبطة بالمشكلات التي لم نجد لها حلاً بعد في حياة المراهق، والتي ترجع بجذورها إلى أيام الطفولة المبكرة.

وقد أشارت دراسة استقصائية قامت بها جريدة «القبس» الكويتية في عددها (6464) عن ظاهرة القلق في المجتمع الكويتي على عينة قوامها 450 شخصاً من الجنسين تتراوح أعمارهم ما بين 15، 55 سنة من فئات اجتماعية مختلفة من طلاب وموظفين وأرباب عمل وصناعيين.

وقد انتهت الدراسة إلى عدد من النتائج أبرزها، القلق من المستقبل الدراسي بالنسبة للطلاب، وهناك القلق من استغناء الجهات عن خدمات الموظفين والقلق من العوامل الاقتصادية، والقلق لدى الرجال العزاب والفتيات العازبات؛ وكذلك القلق المتعلق بالطلاق لدى المتزوجين والقلق من الخيانة الزوجية. وخلصت الدراسة إلى أن المجتمع الكويتي مجتمع قلق.

الإنسان في المجتمع المختلف.

«في أساس العدوان والعنف يتحدث «فرويد» عن وجود نزوتين توجهان الفرد وتمدانه بالطاقة الحيوية: نزوة الحياة (ايروس) ونزوة الموت (ثاناتوس) نزوة الحياة هي منبع الطاقة الجنسية المسؤولة عن كل رباط إيجابي مع الآخرين[1]».

نزوة الموت هي التي تهدف إلى التدمير؛ وهي حين تتركز في الفرد ترتد إليه وتؤدي إلى تدميره وإفنائه؛ أما إذا توجهت إلى الخارج فإنها تأخذ كل أشكال العدوان والعنف والحقد؛ وعندما تتوجه إلى الذات تأخذ شكل مشاعر الإثم وإدانة الذات والقسوة عليها.

إن العدوانية الناجمة عن الإحباط بالإمكان أن تتراكم وتهدد الشخص من الداخل فيلجأ إلى إسقاطها على الموضوعات الخارجية التي تصبح رمز الشر والعدوان. عندها، يصبح الآخرون هم المخطئون ويجوز توجيه العدوانية ضدهم. في المراهقة كما ذكرنا تزداد الغرائز قوة وعنفاً؛ فالرغبات الجنسية المحبطة تولد العدوانية وتؤججها؛ هذه العدوانية التي إذا لم تصرف بالأشكال الإيجابية (بناء، طموح، عمل، كفاح...) فإنها لابد من أن ترتد على الآخر في شكل عنف أو إرهاب.

4 ـ القلق:

عُرِّف القلق بأنه نوع من عدم الراحة الذهنية، أو نوع من الخوف من شر مرتقب، أو أنه ظاهرة توحي بعدم الاستقرار أو هو نوع من الهواجس التي يتعرض لها الإنسان بين حين وآخر أو هو نوع من الكرب ينبع من الاضطرابات من داخل حياة الإنسان.

إن الخوف من شر مرتقب في حالة القلق، قد يبرز حتى في حالة عدم وجود خطر خارجي ـ كوجود كلب مفترس ـ أو وجود تهديد واضح ومعروف كما يحدث عندما ينتاب التلميذ الرعب أثناء الامتحان. وقد وُصف القلق بأكثر من ذلك. بأنه حالة تنبع من الأفكار والأحاسيس والنزوات التي لا تنسجم مع ما يتوقعه الإنسان في نفسه، وقد ينبع القلق نتيجة للشكوك والريب، وتتميز فترة المراهقة بهذا السيل من الشكوك والريب.

(1) مرجع سابق S.Freud: Trois essais sur la sexualité, Idées,

5 ـ الخوف:

قد يعتري المراهقون الخوف نتيجة أهداف الحياة اليومية أو نتيجة للأحلام، أو نتيجة مجريات أفكارهم ومسارات تخيلاتهم. هذا، وأن البعض من هؤلاء الفتيات يتعرضون لحالات من الرعب والفزع قد تستمر معهم أياماً وحتى أسابيع تبقى عالقة في نفوسهم.

إن الكثير من المراهقين عندما يقتربون من العقد الثاني من أعمارهم يشيرون إلى المخاوف التالية:

الخوف من الحيوانات، الخوف من الحالات المؤلمة، الخوف من المخاطر أو عندما تهددهم الحوادث التي تضر بأجسامهم وتسبب لهم الأذى، ومن المخاوف التي تحدث بسبب الأحلام، الخوف من الهزء والسخرية بهم، الخوف من الفشل، الخوف من المخاطرالمرتبطة بالظلام، الخوف من الوحدة في الظلام، الخوف من المخلوقات الخيالية كالأشباح، الخوف من تذكُّر الأشخاص الذين مرّوا بهم في القصص أو في البرامج التلفزيونية.

هذا، وأن الدراسات التي أجريت على بعض الطلاب من المرحلة الثانوية والجامعية حول مخاوفهم قد أضافت قليلاً إلى القائمة التي ذكرنا ومنها: الخوف من الحروب، الخوف من المشكلات المدرسية، الخوف من المشكلات الاجتماعية، الخرف من عدم بذل الجهد الكافي للمضي في دراستهم، الخوف من عدم اختيار عمل ملائم، الخوف من الزيادة في الوزن؛ وبقولٍ آخر، إن هذا النوع من المخاوف يفوق المخاوف التي تأتي من المحيط الخارجي وإن الكثير من هذه المخاوف هو أعراض أو رموز لمشكلات شخصية معقدة.

وكشفت دراسة (الصراف 1991) عن وجود أنواع المخاوف التالية بين البنين والبنات الكويتيين في سن السادسة عشرة.

أنواع المخاوف	ذكور	إناث
1 ـ الخوف من المستقبل	٪ 38	٪ 19
2 ـ الخوف من الرسوب الدراسي	٪12	٪26
3 ـ الخوف من المدرسين	٪12	٪15
4 ـ الخوف من تأنيب الضمير	٪12	٪15
5 ـ الخوف من الجنس الآخر	٪11	٪13
6 ـ الخوف من السمنة	٪1	٪30

ويلاحظ من خلال هذه النتائج أن أكثر أنواع الخوف ظهوراً لدى المراهقين الكويتيين هو الخوف من المجهول بالنسبة للذكور وظاهرة السمنة بالنسبة للإناث.

6 ـ الجنوح ومشكلات التكيف الاجتماعي:

الجنوح بالتحديد هو انحراف السلوك عند الأطفال والمراهقين دون سن الثامنة عشرة، الذي يتمثل في سلوك لا أخلاقي وخارج على القانون وعلى قيم المجتمع ومعاييره.

الجنوح هو من المشكلات النفسية والاجتماعية التي تواجه الأسرة والمدرسة والمجتمع ومما يستوجب التدخل للوقاية والعلاج لما يسببه من اجتراء على الأخلاق وتحدّ لها أو رغبة في الانتقام منها.

1 ـ أشكال الجنوح:

تتعدد أشكال الجنوح تبعاً للاستعدادات الخاصة ولأوضاع البيئة: نذكر من ذلك: التدخين، والشجار، والكذب المرضي، والسرقة، والنشل، والتزييف، والتخريب، والشغب، والاعتداء على الأمن وعلى الممتلكات العامة والخاصة، والهروب من المدرسة، والفشل الدراسي، والتشرد، والبطالة، والتمرد، ونقص ضبط الانفعالات (حدة الطبع وعدم الاستقرار العاطفي)، والسلوك الجنسي المنحرف وتعاطي المخدرات والإدمان.

هذه الأشكال قد تترابط في ما بينها وربما يؤدي ممارسة إحداها إلى التورط في الأخرى (الإدمان على المخدرات يؤدي إلى السرقة بهدف الحصول على المال لشراء المخدر وإلى الجريمة بقصد السرقة، وإلى الاجتراء على المحارم نتيجة التشوش العاطفي والضياع الذهني الناجمين عن تناول المخدرات والهروب من المدرسة يوقع الفرد في براثن عصابات السوء.

إن المراهقة بطبيعتها مرحلة مؤاتية للسلوك الجانح لما فيها من فورة الغرائز (من جنس وعدوان) ولما تبديه من رغبة في التحرر من سلطة الكبار والتمرد عليها ولما فيها من عدم استقرار عاطفي ومن صعوبة في التكيف مع التغيرات الجسمية والنفسية ومع الآخرين.

2 ـ أسباب الجنوح:

ثمة أسباب تعود إلى التنشئة الاجتماعية الخاطئة والنقص في اكتساب القيم، بالإضافة إلى سوء التربية الجنسية ونقص وسائل الترفيه ومشكلات وقت الفراغ والفقر

والجهل والمرض كأسباب عامة.

كما أن المعاملة القاسية في البيت من شأنها ازدياد روح العدوان الذي يرتد على الذات في شكل رغبة لاواعية بالعقاب الذاتي أو في شكل عنف ضد الآخرين.

إن أسلوب التربية الخاطئة (الإفراط في اللين والتساهل والإفراط في الرعاية والحماية) يجعل الفرد ضعيفاً رخواً أمام الصعوبات التي لا يحتمل مواجهتها بالشكل الإيجابي فيعمد إلى الأسلوب السهل أي إلى الجنوح لحل مشكلاته.

وقد ينجم الانحراف أيضاً عن الأسرة المتسلطة النابذة للمراهق أو بالعكس عن الأسرة المفككة (انفصال الأبوين، يتم، طلاق، هجر..) حيث ينعدم الشعور بالأمان ويتحول جو البيت إلى جحيم لا يطاق.

الحرب بدورها عامل مهم من عوامل الجنوح لما ينجم عنها من تشرد وتهجير وتفكك أسري وإحباطات وقلق؛ ففي الحرب تصبح الفوضى هي القاعدة والعنف هو السائد.

وللجنوح أسبابه الاقتصادية والاجتماعية: الفقر والعوز وكثرة عدد الأبناء في الأسرة وما ينجم عنه من نبذ وتهميش للولد ومن جرح لنرجسيته، ومن مشاعر النقص والقصور وعدم الرضا عن الذات.

من هنا ازدياد نسبة الجنوح فيما يسمى بأحزمة البؤس في المدن حيث تزداد نسبة البطالة والأمية ويعاني السكان من الجهل والمرض وغياب التخطيط الأسري وانحطاط الكرامة الإنسانية.

ولعل الأسباب النفسية لا تقل شأناً عن الأسباب الأخرى وهي تتمثل في انعكاسات الإحباط والنبذ للولد من قبل الأهل؛ إضافة إلى صعوبة التماهي بالأهل. نتيجة سوء العلاقة فيما بينهم أو لكونهم منحرفين (مدمنو كحول أو مخدرات، عصابيون، ومنحلون أخلاقياً) مما يجعلهم قدوة سيئة لأبنائهم.

يعاني الجانحون بوجه عام من ضعف الضمير الأخلاقي الذي من شأنه أن يلجم عدوانيتهم، كما يعانون من شعور بتضخم الذات كردة فعل على مشاعر العجز والقصور، وهم يشعرون بالصدمة إزاء لا مبالاة المجتمع بهم، وعدم تفهمه لهم، وإعطائهم القيمة والاعتبار فيشعرون بالغربة والضياع.

للجانحين مفهوم سالب عن الذات صورة الذات عندهم مشوشة، فهي إما مبالغة

في القيمة، وإما قاصرة عاجزة. إن الخبرات السيئة التي يمرون بها تجعلهم غير متقبلين لذواتهم شاعرين بالذنب والقلق فيشذون من أجل إشباع الرغبة اللاوعية بالعقاب الذاتي، لأن الشذوذ من شأنه تخفيض القلق عندهم عن طريق العقاب الخارجي الذي يتوقعونه ويسعون إليه بشكل لاوعي.

كما يعاني الجانح من قصور في ربط الأفعال بنتائجها، ثم إن عدم النضج العقلي والعاطفي يجعله عاجزاً عن تحمل المسؤولية والحكم على الأمور بشكل منطقي يأخذ بعين الاعتبار التجارب السابقة والنتائج المستقبلية؛ وبشكل عام يشكو الجانحون من ضعف عقلي، هذا، بالرغم من وجود بعض الأذكياء بينهم.

الجانح اندفاعي متهور غير قادر على تأجيل رغباته نتيجة اللااستقرار في حياته العاطفية وقابليته الشديدة للإيحاء ونتيجة الضعف حيال ضبط النفس.

على الصعيد الجسمي، يعاني بعض الجانحين بوجه عام من تشوهات وعيوب جسمية تسبب لهم صعوبات في التكيف مع الذات ومع الآخرين فيتولد لديهم مفهوم سالب عن الذات وعدم رضا عنها.

على الصعيد الاجتماعي، يعتبر الجانح فاشلاً في عملية التنشئة الاجتماعية؛ فالتربية التي تلقاها لم تساعده على تكوين الروابط الإيجابية بالوالدين، هذه الروابط التي تشكل الأساس الذي ستبنى عليه علاقاته الاجتماعية الموسعة في المستقبل. من هنا ميله إلى التمرد ومناوأة السلطة ضآلة الروح التعاونية والسلبية والمعارضة وحب الأذى؛ إذ إن تربيته لم تساعده على الاندماج على الصعيد الشخصي أو على الصعيد الاجتماعي. من هنا تقلبه العاطفي، وقيامه بالتصرفات المتناقضة التي تحير المربين. فهو تارةً يتصرف كأي إنسان قوي وتارةً يتصرف كالمجرم ومن دون أسباب وجيهة.

إن عدم الاندماج في شخصيته يجعله عاجزاً عن الاستفادة من خبراته الماضية وعن التخطيط للمشاريع المستقبلية الإيجابية؛ فإذا ارتكب ذنباً ووجهت إليه النصيحة يتقبلها ويَعد بعدم تكراره، ثم لا يلبث بعد حين أن يعود إلى ما هو أسوء منه.

يعاني الجانح أيضاً من الهوج والاضطراب الحركيين، فهو في حركة واضطراب دائمين؛ وذلك بسبب الشعور باللاأمان وبعدم الاستقرار إنه كطفل في السنة الثانية، الذي انفصل عن أمه بالفطام وراح يعوض عن هذا الإحباط العاطفي من خلال الحركة الدائمة التي لا تكل ومن خلال الرغبة في التدمير.

يتكتل الجانحون في جماعات منافسة للأسرة مضادة للمجتمع لأنهم بحاجة إلى من يؤمن لهم الاستقرار والأمان ويقضي على القلق الناجم عن الشعور بالذنب والقصور. فيعتدون على المارة ويسرقون ويمارسون الإدمان على التدخين وعلى المخدرات، ويرتكبون الفواحش، أو يقودون السيارات والدراجات النارية بسرعة جنونية متحدين القوانين والمعايير مؤكدين ذاتهم بهذه الأساليب السلبية الملتوية، معبِّرين بذلك عن نقمتهم على المجتمع الذي أودى بهم إلى هذا الوضع ولم يعطهم الضمير الأخلاقي الرادع فيقعون في قبضة العدالة.

إن انتشار الأفلام المنحرفة التي تروج للسرقة والدعارة والجريمة تساهم هي الأخرى في ازدياد نسبة الجنوح لما للجانح من ميل إلى تقليد أبطال السينما والتماهي بهم؛ ثم إن تراخي سلطة الدولة في زمن الحرب وتراخي سلطة الأهل الذين تجعلهم الحرب في موقع الضعيف، كل ذلك يجعل من العسير على الولد أن يتمثل السلطة في داخله لتشكل عنده الكوابح والموانع أو ما يسمى بالأنا الأعلى السوي.

3 ـ علاج الجنوح:

الوقاية خير من العلاج: الاهتمام برفع مستوى الأسرة والمدرسة والقضاء على الفقر والجهل والمرض والحد من انتشار البؤس، القضاء على البطالة، تضافر جهود الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام وكل المؤسسات الاجتماعية والحكومية من أجل القضاء على أسباب الجنوح.

- محاولة التنبؤ المبكر بالجنوح وتحديد نسبة القابلين للجنوح عن طريق استخدام مقاييس القابلية للانحراف السلوكي حتى نتمكن من اتخاذ الإجراءات الواقية من تفاقم المشكلة.
- إعداد المربين لمواجهة حالات الجنوح ومواجهة الانحراف بطريقة علمية في إطار التعاون والتنسيق بين البيت وبين المدرسة.
- إرشاد الأهل بخصوص أصول التنشئة الاجتماعية للأطفال ومعالجة المراهقين.
- تعزيز المراكز التي تعنى بالجانحين وتزويدهم بالكوادر المختصة والعمل على جعل فترة الاستبقاء للجانحين فيها مفيدة لجهة التوعية والإرشاد، واكتساب الضمير الخلقي، وتكوين الرادع الداخلي، وإتقان المهارات اليدوية والذهنية والفنية، التي تؤهل الجانح إلى التكيف من جديد في بيئته بعد الخروج من هذه المراكز.

- إنشاء العيادات النفسية المتخصصة في علاج الجانحين الأحداث.
- العلاج البيئي وتعديل العوامل البيئية العامة في داخل المنزل وخارجه.
- ملء وقت الفراغ بالرياضة والفنون والنشاطات الاجتماعية.
- توفير الرعاية الاجتماعية للحدث الجانح في الأسرة والمدرسة أو في المؤسسة...
- العلاج النفسي الفردي أو الجماعي الذي يقوم على تصحيح السلوك، وتعديل مفهوم الذات، وحل الصراعات، ومقابلة عوامل الإحباط ودوافع العدوان، إشباع الحاجات غير المشبعة خصوصاً الحاجة إلى الأمن، والتسامي بالعدوانية، والتربية الجنسية.
- إرشاد الوالدين بخصوص نبذ العنف في التعامل مع الجانح، والاعتراف بشخصية الناشيء، وتجنب التفرقة في المعاملة ما بين الأبناء.

الهدف من كل ذلك العمل على تحسيس الجانح بأسباب جنوحه وإعادة تربيته وإعطائه الشعور بقيمته الإنسانية، وربط هذا الشعور باحترام المجتمع، وتوجيه العدوانية نحو البناء بدلاً من الهدم، وتصحيح العلاقة مع الذات ومع الآخرين.

1 ـ العلاقة مع الأهل:

من المعلوم أن العلاقات بين المراهق وبين الأهل تمرّ بأزمة في مرحلة المراهقة، يتولد عنها شعور بعدم ارتياح في الاسرة. لا شك في أن السبب الرئيسي لانهيار النظام العلائقي في الأسرة هو المراهق نفسه كون موقفه من الأهل هو موقف غامض، كما في جميع الاختيارات الأساسية التي يتخذها في هذه المرحلة؛ فبسبب المكانة طفل/ مراهق يتعذّر أن يكون الموقف إلاّ بهذه الصورة؛ فالمراهق/ الطفل لا يزال يشعر بحاجة ماسة إلى التماهي؛ بينما المراهق الراشد بحاجة إلى البحث عن نماذج أخرى. لذلك يشعر الأهل بأن المراهق يرفضهم، والواقع انه لا يرفض الأهل كأهل، بل يرفضهم كأهل يعملون على تثبيته على مرحلة الطفولة؛ فالمراهق يبدأ رفض الخضوع لسلطة الأهل. والأفعال التي كانت تعتبر إلى مرحلة ما طبيعية ومقبولة تصبح أفعالاً غير مرغوب فيها (الخروج مع الأهل في النزهات، أو زيارات الأهل والأصدقاء) تؤدي لدى المراهق نتيجة للرغبة والحاجة إلى الشعور بأنه مختلف، إلى إظهار معاكسته وثورته وعصيانه ووقاحته، فهو يتهيب ويخاف من استلاب مكانته كراشد، هذه المكانة التي هي مطلبه الرئيسي، وفي الوقت نفسه. فإن هذا الموقف يبيّن أن قيم الطفولة ليست مرفوضة

لذاتها، بل لما تمثله من طفلية، فيرفضها.

مما يولد تمزقاً يحاول المراهق إخفاءه عن طريق المبالغة بالثقة في الذات، أو تحدي الأهل القابلين بهذه القيم.

إن تمزق المراهق يظهر أيضاً في مواقفه المتجاذبة:

- الرغبة في التفرد والاستقلالية يقابلها الرغبة في التواجد والتواصل.
- الرغبة في الوحدة والانكماش يقابلها الرغبة في المشاركة والانفتاح على العالم.
- الرغبة في التملك والاستقلال والرغبة في التفاني والغيرة المفرطة.

من الصعب استعراض جميع وجوه الصراع مع الأهل فهي لا حصر لها، تبدأ من التعارض في ما يتعلق بمشكلات اللباس والثياب إلى المشكلات الدينية، وروح المعاندة للأهل تظهر بوضوح في مسألة اختيار المهنة والزواج.

وعلى العموم فإن موقف الراشدين والكبار يتصف بأنه موقف عدواني من المراهق، ويتخذ أشكالاً مختلفة منها:

1 ـ موقف الراشد صاحب الخبرة الذي يؤكد على قيمته ومكانته وتفوقه، فيما يحاول التشكيك في قيمة المراهق وفي كل ما يصدر عنه.

2 ـ موقف الراشد الواعظ الذي يدفع المراهق إلى الامتثال بالقيم والمعايير والطاعة والاحترام، فهو يلعب دور الحليف للأهل.

3 ـ موقف الراشد المتقرب الذي يقابل المراهق بالتودد وإظهار الرعاية والعطف، ممثلاً صورة الأب المثالي الذي لا يجوز مجابهته.

4 ـ موقف الراشد الذي يعتبر نفسه في حالة شباب دائم لخداع المراهقين وتسييرهم بحسب رغباته.

إن هذه المواقف العلائقية جميعها تبيِّن أن المراهق لم يكتسب بعد الوسيلة الملائمة لمواجهة ذاته والآخرين، وأن الراشدين لا يعرفون كيف يواجهونه، فهنا تطرح مشكلة إعادة تنظيم العلاقات بين الأهل وبين الراشدين والمراهقين.

إن انخفاض السلطة الأسرية الظاهري من قبل المراهق، ينبغي ألا يدفع إلى الاعتقاد بأن الهدف في النظام العلائقي الصحيح هو القضاء على هذه السلطة؛ فالواقع

أن أسباباً كثيرة تعود إلى مواقف الأهل والراشدين ، ليس إلى مواقف المراهق. ويتبيَّن من الدراسات التي أجريت على كثير من المراهقين، أن المعارضة والثورة، مجابهة النظام والسلطة مصدرها إما سلطة الأهل التعسفية، وإما على العكس الغياب الكلي لهذه السلطة.

ففي مثل هذه الأوضاع لابد من التأثير على الجيلين: بالنسبة للمراهقين يجب أن تتوضح لهم إيجابيات الخضوع للسلطة؛ وبالنسبة للراشدين، فمن الضروري أن يتفهموا المراهقين ويتقبلوهم.

بعض المقترحات التربوية والنفسية للوالدين:

1 ـ توفير جو نفسي ـ اجتماعي خالٍ من الضغط والكف، وذلك عن طريق إتاحة الفرص الكافية لأبنائهم لممارسة الأنشطة التي يرغبونها.

2 ـ تدريب الأبناء على محاولة اكتشاف ما يحيط بهم عن طريق المحاولة والخطأ، وعن طريق التفكير الاستقصائي والحدسي؛ فالفرد في حياته عرضةً للنجاح والفشل، والفشل ينبغي ألاّ يحول بين الإنسان وبين تكرار المحاولات لاكتشاف ما يحيط به من غموض.

3 ـ مساعدة الأبناء على تقييم أفكارهم وتجاربهم دون الشعور بالذنب أو خيبة الأمل إذا لم تؤتِ ثمارها.

4 ـ توفير قاعدة نفسية آمنة يمكن للأبناء من خلالها الانطلاق للاكتشاف، والمحاولة والتجريب، فينبغي أن يشعر المراهق بأنه محل حب وتقبُّل من والديه.

5 ـ تقبُّل الأفكار الجديدة للأبناء، واحترام حب الاستطلاع والتساؤلات المستمرة والإجابة عليها دون اعتراض أو تقليل من شأنها، كما ينبغي على الوالدين أن يجعلوا أفكار أبنائهم أكثر واقعية.

6 ـ ألاّ يبالغوا في مساعدة الأبناء إلى الحد الذي يحول بين الأبناء وبين الاستقلال.

7 ـ أن يوفروا الفرص المتنوعة والمتعددة الأهداف والغايات لتلائم ميول وأفكار الأبناء وتنميتها.

8 ـ أن يزوِّدوا الأبناء بالحقائق والخبرات الثقافية والاجتماعية المثيرة لكي تضيف إليهم حقائق جديدة تشكل لهم نوعاً من التحدي لقدراتهم العقلية.

9 ـ مساعدة الأبناء ليصبحوا أكثر حساسية حيال المثيرات البيئية.

10 ـ توفير وسائل الثقافة المختلفة داخل الأسرة وتوجيه الأبناء إلى حسن استخدام هذه الوسائل والمعينات.

2 ـ العلاقة مع الرفاق:

يؤثر الرفاق في سلوك المراهق، وتعتبر جماعة الرفاق خير وسيلة يحقق المراهق فيها رغباته وآماله وتطلعاته المستقبلية، وعن طريقها يمكن تغيير سلوكه واتجاهاته، ويمكن أن يعرف نفسه، ويشبع الكثير من حاجاته الذاتية والاجتماعية التي تتعلق بالمركز والمكانة، ويكتسب الميراث الثقافي والاجتماعي الذي يمكّنه من التفاعل الإيجابي بين أفراد مجتمعه.

ولكن الجماعة التي ينضم إليها المراهق ذات أشكال متنوعة، وتختلف كل منها عن الأخرى بحسب طبيعة العلاقات التي تربط بين الأفراد الذين يكوّنون هذه الجماعة؛ فهناك جماعة الصحبة، وجماعة الأصدقاء والشلة، وجماعة العصابة التي يمكن أن ينضم إليها المراهق إذا كان جانحاً.

ويختار المراهقون أصدقاء لهم لأسباب مختلفة؛ فالبعض يختار من الأصدقاء من تبهجهم رفقتهم وتجعلهم حافلة بالمرح والضحك، والبعض يختار من الأصدقاء ذوي الأفكار الناضجة، والميول المتفقة مع ميولهم، والبعض الآخر يختار من الأصدقاء من يخضعون لزعامته ويسيرون بإرشادهم ويتخذون آراءهم وأفكارهم، والبعض الآخر، لا يهتم أن يكون هو المسيطر، بل يفضل من يرسم الخطط، ويضع الأفكار له، ويتوقع بعضهم من أصدقائهم أداء واجباتهم، وتفريج ضيقهم، ويتوقعون منهم الوفاء والتقدير، دون أن يمنحوا أصدقاءهم شيئاً.

والجماعة الأولية من الرفاق هي التي تتكوَّن فيها العلاقات وجهاً لوجه، وتتميَّز هذه العلاقة بأنها وثيقة وقوية وتستمر. أما الجماعة المرجعية هي التي يرجع إليها المراهق في تقويم سلوكه الاجتماعي والتي يلعب فيها أحب الأدوار إلى نفسه وأكثرها إشباعاً لحاجاته ورغباته، ويشارك أعضاءها الدوافع والميول والاتجاهات والقيم والمثل بتماهيه بها، وهي تؤثر في سلوكه واتجاهاته، وتحدد مستويات طموحه وإطاره المرجعي.

ويرى علماء النفس والاجتماع أن لجماعة الأقران جاذبيتها الخاصة لدى أعضائها،

وأن الاختلاف مع الآخرين في وجهات النظر لا يعتبر شذوذاً أو ضعفاً، وإنما العزلة الاجتماعية وعدم القدرة على الاندماج والاختلاط بالآخرين قد تكون سبباً رئيسياً للمشكلات والاضطرابات النفسية، وقد يشعر العضو بالفخر والاعتزاز لانتمائه إلى هذه الجماعة، خصوصاً إذا كان له موقع ومنزلةً داخل هذه الجماعة، لأن ذلك يساعد على علاج الكثير من المشكلات النفسية التي يعاني منها العضو مثل الخجل والانطواء والعزلة.

3 ـ العلاقة داخل المدرسة:

إذا كانت الأسرة الخلية الأولى في حياة المراهقين، فإن المدرسة تحتل المرتبة الثانية، ولكنها تختلف عن الأسرة في أنها أكثر اتساعاً وتعقيداً، إلاّ أن العلاقات فيها ليست بنفس الدفء والعمق والاستمرارية.

وتلعب العملية التعليمية دوراً مهماً وبارزاً في تشكيل جوانب شخصية المراهق وسلوكه؛ فالمناهج الدراسية، وطرق التدريس، والأساليب والتقنيات التربوية قد تساعد على نمو شخصية المراهق أو تعيق هذا النمو.

ويشير تورنس إلى ضرورة تهيئة الجو الصالح عقلياً وانفعالياً في داخل الصف كي يكون مناسباً لقدرات المراهقين، واستعداداتهم، ويوفر لهم فرص التعلم التلقائي، وتشجيع المبادرة الذاتية على التعلم بالممارسة والعمل؛ وعلى المعلم أن يخلق مناخاً تربوياً سليماً باتباع الأسس التالية:

الحرية، التفكير الاستقلالي، الاعتماد على النفس، إشباع الحاجات والميول والدوافع، التوافق الاجتماعي، الخبرة المشتركة، التدريب على حل المشكلات، أهمية النشاط بالنسبة للمراهق، الاهتمام بفرديته، التعبير عن الذات، التعلم الهادف، التعامل الديمقراطي، التغيير والتجديد، احترام الفروق بين الطلاب، مراجعة مستمرة لأهداف العملية التعليمية، التفكير في أن التربية هي إعادة بناء المجتمع.

ويرى الاختصاصيون في التربية والتعليم أن إدارة الصف يجب أن تتم بطريقة يلعب فيها الطالب الدور الرئيسي في التعليم، بحيث يتم التعليم عن طريق النقاش والاكتشاف، ومشاركة كل فرد في الصف، فيشترك في التخطيط والتنظيم والتنسيق والتنفيذ والمتابعة وأخيراً في التقويم، وإذا أسهم كل فرد في ذلك كان دافعه على العمل والمثابرة قوياً.

كما يجب أن تتوفر في الصف الدراسي فرص التعلم الذاتي.

ويلعب المعلم في الصف دوراً مهماً فهو يؤثر في المراهقين بأقواله وأفعاله ومظهره وسائر تصرفاته التي يمتصها المراهقون بصورة واعية أو لاواعية، كما يتعلمون الكثير من أنواع السلوك بواسطة عملية التماهي.

ولذا نجد أن بعض الدراسات يركز على أنماط شخصية المعلم؛ وتقسم هذه الأنماط إلى:

1 ـ القيادة التقليدية: تقوم على أساس تقدير السن، وفصاحة القول، والحكمة وما على الأفراد إلاّ الطاعة المطلقة.

2 ـ القيادة الجذابة: تعتمد على الصفات الشخصية المحبوبة وفيها قوة الجاذبية.

3 ـ القيادة العقلانية: تقوم على الطاعة والولاء لمجموعة الأصول والمبادىء والقواعد المرعية وليس لاعتبارات شخصية.

4 ـ القيادة التسلطية: تقوم على الاستبداد والتعصب وتستخدم أساليب الفرض والإرهاب والتخويف.

5 ـ القيادة غير المنضبطة: تقوم على أساس ترك الحبل على الغارب، فتقدم المعلومات إلى الآخرين دون التدخل في شؤونهم.

6 ـ القيادة الديموقراطية: تقوم على احترام شخصية الفرد؛ فالفرد يعتبر غاية في ذاته، وتعتمد على الاستشارة والتعاون.

هناك صراع دائم بين المراهقين وبين تلك الأنماط من القيادات، سواء داخل المدرسة، أم في الصف، وغالباً ما تنتهي الصراعات بفرض المُناخ التسلطي. وذلك للأسباب التالية:

1 ـ أن غالبية التلاميذ لا يرغب في تحمل المسؤولية لخوفه من الفشل، الاستهزاء به من مجتمع الكبار، لذا نجده يفضل أن يؤمر، ولا يرغب تجاوز ذلك.

2 ـ إذا أصر بعض المراهقين على القيام بعمل بحسب طريقته الخاصة، فإنه يجد أن المعلم المتسلط يفقد أعصابه ويغضب ويهزأ منه أمام الآخرين فيخلق جواً من الذعر وعدم الرغبة في البحث والاطلاع.

3 ـ أن هذا التعامل التسلطي يؤثر على مشاعر المراهقين، فيفقدون الثقة في أنفسهم،

ويحجمون عن القيام بأي عمل خوفاً من السلطة، وبالتالي نجد الكثير من المراهقين اتكاليين، يعتمدون على الغير، ويتعودون على الاستسلام والانسحاب والعدوان والغضب.

ومن خصائص جو الصف في المُناخ التسلطي ما يلي:

1 - في المناخ التسلطي في الصف يتم إجبار التلاميذ على أداء واجبات محددة، وتعتبر المعلومات أكثر أهمية من عملية التعلم ذاتها.

2 - يركز المعلم على تقديم المحتوى في صور حقائق ومعارف، بهدف تقديمها في الامتحان؛ في واقع الأمر، يخزن التلميذ المعلومات ويسردها في الإمتحان، وينساها بعد ذلك.

3 - يركز المعلم على محتوى المقرر في الكتب المدرسية دون التنويع في مصادر البحث والاطلاح، ويتوقع من التلاميذ تقبُّل الأهداف المحددة للمنهج.

4 - يقيم المعلم إجراءات شكلية، ضوابط مفروضة في الصف، كما يقيم علاقات شكلية مع تلاميذه.

5 - يتبع المعلم المنهج الموضوع بدقة، ويتجنب المشكلات، ولا يشجع تلاميذه على إبداء الرأي والنقد، أو عرض المقترحات.

6 - يطلب الاحترام للمعلم كسلطة، ولا يثق في أحكام تلاميذه، أي أنه يركِّز على الاتصال من جانب واحد من المعلم إلى المتعلم، مع وجود اتصال ضعيف بين المتعلمين أنفسهم.

7 - يقوم بالتدريس الإلقائي، ويقدم معلومات يعتقد بأن على التلميذ أن يعرفها.

8 - ينمي بين تلاميذه تنافساً، ويخلق بينهم جواً من عدم الثقة، ومن نقص الاهتمام بالآخرين.

نهاية أزمة المراهقة

إن السؤال الذي يمكن طرحه في ما يتعلق بنهاية أزمة المراهقة، هو كيف يتعلق التكيف الصحيح مع المحيط الذي يعيش فيه المراهق؟

تجمع الدراسات النفسية والاجتماعية اليوم على أن نهاية أزمة المراهقة تتوقف على عوامل داخلية وخارجية، ولكنها تتمحور في شكلها العام بتحقيق شرطين:

ـ الشرط الأول: أن تنتهي الاضطرابات العضوية التي تصاحب انتظام الوظائف الجنسية.

ـ الشرط الثاني: أن توظف الحياة الاجتماعية المراهق وتشغله.

في أكثر المجتمعات القائمة يحدث هذان الشرطان في وقت واحد. فالزواج والعمل في مهنة يمكنان الفرد من الانخراط في المجتمع ونظمه.

وقد تكون نهاية الأزمة، بالنسبة لبعض المراهقين في نهاية دراستهم، وهي تتم بهدوء، وخصوصاً لدى المراهقات المراهقين الذين لم تبلغ أزمة المراهقة عندهم شدتها. ولكن التغير الجذري يحدث، في أغلب الأحيان، لدى التخرج والالتحاق بوظيفة ما، مما يخلق الشعور بالاستقلالية عن الأهل، والتخلص من الاعتماد الاقتصادي. ولكن التكيف الأكمل يتم بالزواج الذي ينظم الوظائف الجنسية والوظائف الاجتماعية، كون الزواج هو المؤشر القانوني للإنجاب ولتأسيس عائلة، وهو، في الوقت نفسه، مصدر للثقة في الذات والتوازن العقلي ولعلاقات جديدة ومتعددة بالمحيط.

فالعيش المشترك الذي يفرضه الزواج يستوجب تنازلات متبادلة وانفصال عن عادات كثيرة؛ فالأمومة والأبوة يؤديان إلى ظهور حاجات ومشاعر وأفكار جديدة تكبت هموم المراهقين وصراعاتهم، فيحدث، نتيجة لذلك تغير جذري في البيئة النفسية، إذ تتغير طريقة التفكير، ويتبدل أسلوب التصرف.

يرى دبس أنه إذا لم يحقق الزواج التكيف الجنسي والاجتماعي فإن الاضطرابات لدى الفرد تستمر أو تبعث من جديد، فحالات الطلاق هي نتيجة عدم التوافق في المزاج الذي تسببه رغبة أحد الزوجين، أو الاثنين معاً، في الحفاظ على ميوله وأفكاره وعاداته،

أي البقاء كما كان مراهقاً[1].

والزواج والعمل يحرران الفرد من عائلته ويجعلانه مستقلاً: أولاً: تحرر في السكن، وثانياً: استقلال اقتصادي. وكلاهما مؤشر على انتهاء الروابط المفروضة، وبهما يصبح مطلب المراهق في الاستقلال حقيقة واقعة.

ولكن لا ينبغي أن نعتقد بأن المراهق يتخلى كلياً عن تمايزه وتفرده. إن كثيراً من الأفراد يتظاهرون بتكيفهم مع الواقع دون التنازل عن نرجسيتهم ومثاليتهم.

وفي حالات كثيرة كما يقول دبس، نجد لدى بعض المراهقين رفضاً واعياً أو غير واعٍ للدخول في مرحلة الرشد، كما نجد ميلاً إلى البقاء في مرحلة المراهقة، وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم تسمية المراهقين والراشدين الرومانسيين إضافة إلى المضطربين عقلياً، الذين يتصفون بعدم التكيف مع الواقع.

(1) مرجع سابق M.Debesse: La crise d'originalité Juvénile.